Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

النشأة

مقدمة : يستطيع المترجم للأستاذ الإمام محمد عبده أن يستقى أهم مايعنيه من سيرته من مصدر وثيق نادر فى تاريخ الآداب الإسلامية ، يفوق فى قيمته سائرما اعتاد كتاب السير أن يرجعوا إليه من مصادر : وذلك المصدر لا يعدو بضع صفحات كتبها الأستاذ الإمام نفسه فى أخريات أيام حياته ، إجابةً لرغبة صديقه الشاعر الرحالة الانجليزى « وِلْفرد سكاون بلَنْتْ » ؛ وهى صفحات تجلو لنا كثيراً من الحقائق عن أُسرة الشيخ المصرى ونشأته . وتحت أيدينا من قلم الإمام أيضاً مذكرة طريفة ضمنها طائفة من الأجوبة عن أسئلة كان قد وجهها إليه بهذا الصدد تلميذه « رشيد رضا » ، وفيها اجمال لسيرة الأستاذ وأعماله ووجهته فى الاصلاح .

***

فى المنزل : ينتسب محمد عبده الى أسرة من أسرات الفلاحين المصريين: فأبوه هو « عبده خير الله » من سكان قرية « محلة نصر » بمركز شبراخيت من مديرية البحيرة . رجل رزقه الله بسطة فى الجسم ، ووفرة فى النشاط ، وثباتاً فى العزيمة ، وبراعة فى الصيد والرماية . وهو الى هـذا كله من ذوى الوقار ، قليل الـكلام ، كثير الصمت ، مقتصد فى الحركات ، بعيد عن مخالطة الصغار من الناس . ومن آيات هيبته لدى أهل بيته أنه كان ينفرد بالطعام ، لا يؤاكل نساءه وأولاده ، جرياً على عادة أهل الطبقات الوسطى من الفلاحين .

ويظهر أنه كان أول أمره فقيراً ، ثم أصبح من صغار الملاّك ، وتحسن مركزه الاجتماعى، فأضحى من متوسطى أصحاب الأطيان : إذ روى مندوب جريدة انجليزية أنه كان يملك نحو أربعين فداناً فى عهد الثورة العرابية .

كان كريماً سخى النفس ، « يقرى الضيف ويؤوى الغريب » . بلغ من جوده أن داره كانت مفتوحة لـكل طارق ، بل رُوِى أن داره لم يكن لها باب !

وكان شهماً شجاعاً ، وكان حرًّا يمقت الظلم ، أبيًّا لا يقيم على الضيم . ومن أجل تلك الحرية وذلك الإباء اضطُهد وشرِّد فى أواخر حكم الخديو « عباس الأول » .

ولعل ما تحلّى به « عبـده خير الله » من صفات بدنية وشمائل روحية هو الذى ميّزه من أهل بلده ، وخلع عليه مهابة ، وجعل الحـكام يحترمونه ، ويَنزلون عنده ، ولا ينزلون فى بيت العمدة ، مع أنّ هذا كان أكثر دوراً وأوسع رزقاً !

شاهد الصبى « محمد عبده » مظاهر ذلك النفوذ الشخصى ، فاستقر فى نفسه احترام عميق لأبيه ، وثبت فى ذهنه أن « الـكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المـال » .

أما أمه فاسمها « جنينة » ، من أسرة كبيرة فى مديرية الغربية تعرف بأسرة « عثمان » . ويقال إنها تنتسب الى بنى عدىّ ، قبيلة سيدنا عمر بن أبى طالب .

وكانت السيدة « جنينة » أيّماً ذات ولد ، فتزوجها « عبده خير الله » فى هجرته من بلده فراراً من ظلم بعض الحـكام فى مديريته . وبعـد أن قضى المهاجر فى غربته نحو خمس عشرة سنة عاد الى « محلة نصر » ، وعادت معه زوجته ، وكانت قد ولدت له « محمداً » فى أواخر سنة ١٨٤٩ م

وكانت منزلة السيدة « جنينة » بين نساء القرية لا تقل عن منزلة زوجها « عبده » . وكانت ذكية الفؤاد ، رقيقة القلب ، شديدة الحياء ، برة رحيمة « ترحم المساكين ، وتعطف على الضعفاء ، وتعدّ ذلك مجداً وطاعة لله وحمدا »

ونشأ الصغير « محمد » فى منزل به زوجات متعددات وأولاد مختلفو الأمهات : فقد تزوج أبوه زوجة أخرى غير أمه ، وكان له منها بنين و بنات . فاستطاع الصبى منذ حداثة سنه أن يقف على ما فى نظام الأسرة المصرية من عيوب سيوجه همته الى إصلاحها .

وسمع الصبى عن كثير مما أصاب أسرة أبيه من بغى الحكام وعنتهم ، و بقيت آثار ذلك فى نفسه . ولعل ذكرياتٍ كهذه ستكون له فى المستقبل حافزا على النهوض بدعوة المصريين الى عدم الاستكانة للحاكم ، والى « التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة » .

* * *

حفظ القرآن : بدأ محمد عبده تعلم القراءة والكتابة فى منزل والده . و بعد أن تجاوز العاشرة من عمره ، أتم حفظ القرآن على حافظ خاص ، قرأ عليه وحده الكتاب أول مرة ، ثم أعاد القراءة حتى حفظه كله فى عامين .

فى عامين اثنين ! ماشاء الله ! ما شاء الله !

وتسامع أهل « محلة نصر » بهذا النبأ . فجاء صبيان من أحد الكتاتيب فيها ، ليقرأوا القرآن عند الحافظ الذى قرأ عليه ابن « عبده خير الله » ظنًّا منهم أنه صاحب الفضل فى نجاح الصبى فى حفظ كتاب الله .

حفظ «محمد» القرآن منفرداً فى منزل والديه وعلى حافظ خاص . فلم يكن مضطراً الى أن يحيا حياة صبيان القرية فى « الكتاتيب » ، ووقاه الله مما يتعرضون له فيها من عادات ضارة بالعقل والبدن جميعاً ، وصانه من عيوب تلك البيئة العجيبة التى صورها الدكتور طه حسين بك فى « الأيام » أبدع تصوير .

من أجل هذا لم يكن الأستاذ الإمام يهتزّ فى دروسه ، وهو متربع فى كرسيّه ، خلافاً لعادة من نشأوا نشأة الكتاتيب . وإذا صحت ملاحظة الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا « فلست ترى رجلاً كان فى الكتاتيب إلا تحرك جذعه من نفسه ، متى جلس متربعاً ، مهما تكلف السكون » !

***

الأزهرية : وأراد « عبده خير الله » لابنه أن يتعلم تجويد القرآن ، فأرسله سنة ١٨٦٢ الى المسجد الأحمدى بطنطا . وكان لذلك المسجد عند المسلمين شهرة فى تعليم القرآن وفنون القراءات . ولا ندرى أثر تلك الدراسة الفنية فى نفس الفتى . ولكن الشيخ « محمد عبده » ، فيما يروى الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا ، كان « من أحفظ الناس للقرآن وأجودهم فى تلاوته نغمة وأحسنهم ترتيلا » .

وبعد أن قضى الفتى فى تجويد القرآن نحو سنتين جلس فى دروس العلم

بالمسجد الأحمدى ؛ فبدأ يتلقى قواعد اللغة العربية . ولكن منهج التعليم فى الجامع كان وعراً سخيفاً منافياً للعقل : كان المشايخ يفاجئون المبتدئين من الطلاب بما يجهلون من الاصطلاحات وقواعد الاعراب ، ويطالبونهم بأن يستظهروها استظهاراً ، ولا يعنيهم بعد ذلك أن تكون معانيها عندهم مفهومة أو غير مفهومة . وقد يبيحون المناقشة أو المراجعة ، ولكنها كانت مناقشات لفظية لا حاصل لها ، ولا تقدم الطالب خطوة فى اكتساب المعرفة الحقيقية .

ما عسى أن يكون وقع هذا النوع من التعليم فى نفس ناشئ مثل «محمد عبده» ، سليم الفطرة ، ذكى الفؤاد صريح مع نفسه ومع الناس ، حريص على أن يفهم ، وعلى أن يحتفظ باستقلاله فى الحكم على الأشياء ؟

وماذا يصنع الفتى إذا وجد نفسه مرغماً على أن يحفظ كتاباً « كشرح الكفراوى على الآجرومية » لا يفهم منه متناً ولا شرحاً ، بل لا يكاد يفهم منه عنوانه ؟

أخذ الفتى يسائل نفسه : ترى ما « الآجرومية » ؟ وما معنى : « الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » ؟ وما معنى : « الاعراب هو تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً أو تقديراً » ؟ . . إن الشيخ لم يفسر لنا شيئاً من هذه الرموز التى ما زالت عندى ألغازاً . فلأسألنه عنها من الغد » .

ويأتى الفتى الى الدرس مبكراً ، وينتظر حضور أستاذه الشيخ ، فيبادره :

— أتأذن لى ياسيدى الشيخ أن أسأل سؤالاً ؟

— لا . لا تسأل عن شىء .

— ولكن يامولانا . ما الآجرومية ؟ وما معنى . . .

ولم يمهل الشيخ تلميذه لكى يتم سؤاله حتى صرخ فى وجهه :

— انصرف ياولد من عندى ، فقد ضايقتنى وأقلقتنى وأزهقت روحى .

ولكن الفتى يظل واقفا مشدوهاً لا يدرى لغضب الشيخ سبباً ، فيزداد الشيخ انفعالاً ويزمجر :

— قلت لك انصرف يامنجوس ! وإلا كان جزاؤك الطرد أو الضرب .

ويخرج طالب العلم من المسجد يائساً من فهم النحو العربى . وقد عالج أمره زهاء سنة ونصف فما أفلح ، وما فهم منه قليلاً ولا كثيراً . وأسرع الخطى نحو المنزل وهو يحدث نفسه :

— ما أصعب علوم اللغة العربية علىّ ! ولكنها لغة القرآن وقد حفظته وأجد له فى نفسى رنيناً جميلاً .

وسرعان ما يدب الأسى الى قلب الفتى الحساس ! إنه إنْ بقى يستمع

الى ما يستمع إليه الطلاب أضاع وقته فيما ليس منه طائل . فتخطر بباله فكرة الهرب و ينفذها لساعته .

و يذهب «محمد» الى أخواله، فيختفى عندهم، و يقضى ثلاثة أشهر فى بلدهم لاهياً ، مؤثراً اللعب بالسلاح وممارسة الفروسية ، على اللعب بالألفاظ وحفظ الآجرومية !

ولكن الشيخ «مجاهد» يبحث عن أخيه «محمد» ، فيهتدى إليه و يعود به إلى المسجد الأحمدى . غير أن الفتى يأبى أن يضع قدميه فى المسجد مرة أخرى، ولا يزيده إلحاح أخيه إلا إصراراً على الامتناع ، وهو يقول :

— قد أيقنت اليوم أن لا نجاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق علىّ إلا أن أعود الى بلدى وأشتغل بالزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربى .

و ينتهى الجدال بتغلب إرادة الفتى على إرادة أخيه الأكبر . و يأخذ محمد ما كان له فى طنطا من ثياب ومتاع ، و يعود الى « محلة نصر » ، و فى نيته أن لا يعود الى طلب العلم أبداً . وعلى هذه النية تزوج سنة ١٨٦٥ ، وهو فى السادسة عشرة من عمره .

و بعد أن تزوج محمد بأربعين يوماً جاءه والده — وقد عزّ عليه أن ينقطع عن طلب العلم أذكى أبنائه وأحسنهم استعداداً — فأمره بالرجوع الى المسجد الأحمدى . ولم يجد الفتى مندوحة عن الإذعان لارادة أبيه الحازم ، فرضى فى

الظاهر وإنْ كان فى نفسه قد أضمر الهرب . وتقرر يوم السفر ، فأحضر «الشيخ عبده» فرساً ليركبه ابنه ، وأرسل معه رجلا من الأشداء ليوصله الى محطة « إتياى البارود » ، على أن يركب القطار منها الى طنطا . وكان اليوم قائظاً « والريح عاصفة ملتهبة تحصب الوجه بشبه الرمضاء » ، فلم يستطع محمد أن يداوم السير وقال لصاحبه :

— لا طاقة لى فى هـذا الحر على متابعة السفر . فلا بأس من التعريج على قرية أنتظر فيها الى أن تخف الحرارة .

فلمـا أبى الرجل وأظهر التشدد ، تركه الفتى وفر منه يعدو بفرسه الى « كنيسة اورين » ، وهى قرية من قرى مركز شبراخيت بمديرية البحيرة ، غالب سكانها من خؤولة أبيه .

* * *

مع الشيخ درويش : وبات محمد عبده ليلته فى « كنيسة أورين » . وفى الصباح جاءه أحد أخوال أبيه ، واسمه « الشيخ درويش » . وهو رجل صوفى ، طيب القلب ، صافى العقيدة ، نافذ البصيرة ، كان يجيد حفظ القرآن وفهمه ، كما كان يحفظ « الموطأ » و بعض كتب الحديث . وسبقت له أسفار الى صحراء ليبيا ، ووصل فى أسفاره الى طرابلس الغرب . وجلس الى « السيد المدنى » الصوفى ، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية . وعاد الشيخ درويش من

أسفاره الى بلده « كنيسة أورين » ، واشتغل بفلاحة الأرض ، وإن كان ذا استعداد لارشاد الناس .

جاء هذا الصوفى ومعه كتاب يحتوى على رسائل من « السيد المدنى » الى بعض مريديه ، مكتوبة بخط مغربى دقيق . وكانت هذه الرسائل تنطوى على بعض أقوال للصوفية وآراء لهم فى رياضة النفس ومجاهدتها ، « وتطهيرها من دنس الرذائل ، وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هـذه الحياة الدنيا » .

فقدم الشيخ الكتاب الى الفتى ، فأعرض عنه إعراضا . فقال الشيخ :

— كان بودى أن أنظر فى ذلك الكتاب ، ولكنى أصبحت شيخاً و بصرى ضعيف لا يقوى على القراءة .

ثم وضع الشيخ الكتاب بين يدى الفتى ، فرماه هذا بعيداً عنه ، وقال :

— لعن الله الكتب ! لا شأن لى اليوم بالقراءة . والله لقد كرهتها ، وضاق صدرى بأصحابها .

فقال الشيخ : « أما حفظت القرآن يابنى ؟ »

— نعم حفظته ، وأحببت تلاوته وتجويده ، ولكن . .

— ولكن ماذا ؟

— الآجرومية ياسيدى . الآجرومية سبب شقائى .

— لا لا . لا تبتئس ياولدى ، وما عليك من الآجرومية . انظر فى هذا ، واقرأ سطراً ، وسترى ...

وما زال الشيخ يبتسم ويتلطف فى السؤال ، حتى ذهب نفور الفتى ، ورضى أن ينظر فى الكتاب ، وأن يقرأ منه بضعة أسطر . فاندفع الشيخ يفسر له معانى ما يقرأ بعبارة واضحة سائغة لا جفوة فيها . ولبث الشيخ على ذلك فترة ، حتى جاء بعض فتيان القرية — كعادتهم — يدعون محمداً الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح . فما كاد الفتى يلمح أصحابه حتى رمى الكتاب وانصرف إليهم .

وبعد العصر جاء الشيخ درويش بكتابه ، وألح على محمد فى قراءة شىء منه ؛ فقرأ الفتى وفسر الشيخ . وجرى الأمر على ذلك فى اليوم الثانى . وفى اليوم الثالث ظلّ محمد يقرأ والشيخ درويش يفسر زهاء ثلاث ساعات ، دون أن يشعر الفتى بفتور أو ملل . ولما أراد الشيخ الانصراف لشأن من شئونه طلب إليه الفتى أن يبقى الكتاب معه ، فتركه . ومضى محمد يقرأ الكتاب ، وكلما مرّ بعبارة لم يفهمها وضع عليها علامة ليسأله عنها . ولما جاء الشيخ عصر ذلك اليوم سأله محمد عما لم يفهمه ، فأبان معناه على عادته . وظهر على الشيخ الفرح بما تجدد عند الفتى من الرغبة فى المطالعة والميل الى الفهم .

ولم يأت على الفتى اليوم الخامس من صحبته للشيخ الصوفى إلا وقد انشرح صدره له وأنست نفسه به ، وانقلبت فى صحبته قيم الأشياء : فأصبح اللهو والزهو أبغض شىء إليه بعد أن كان يحبهما ، وأضحت المطالعة والمدارسة أحب

شيء إليه بعد أن كان يلعنهما ويسخط على المشتغلين بهما ؛ بل انه صار كارهاً لأولئك الشبان الذين كانوا يدعونه الى اللهو ويزهدونه فى صحبة الشيخ : فكان يفر من لقائهم ولا يطيق أن يرى واحداً منهم .

وفى اليوم السابع تطلع الفتى الى معرفة شيء عن تلك الحياة الروحية التى أحسّ بأن الشيخ درويش يحياها ، وأدرك أنها تخالف المألوف من حياة الناس فى القرية ؛ فذهب من نفسه لزيارة الشيخ فى منزله ، وسأله متلهفاً على الجواب :

« ما هى طريقتكم ؟ »

فأجاب الصوفى : « طريقتنا الاسلام »

فقال الفتى : « أوليس كل هؤلاء الناس مسلمين ؟ »

فأجاب الشيخ على الفور : « لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمور ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب ! »

لأول مرة فى حياته يسمع الفتى عن المسلمين والاسلام رأياً كهذا الذى سمع ، وكأنما كانت كلمات الشيخ ناراً أحرقت ما كان عنده من المتاع القديم ، متاع الغرور والزعم الباطل « بأننا مسلمون ناجون ، وإن كنا فى غمرة ساهين » .

ثم سأل محمد عبده الشيخ درويش :

— ما وردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصلوات ؟

— لا ورد لنا غير القرآن : نقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر .

— أنَّى لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئاً ؟

— أقرأ معك . ويكفيك أن تقرأ الجملة ، وببركتها يفيض الله عليك التفصيل . وإذا خلوت فاذكر الله . . .

وأخذ محمد عبده يعمل على ماقال الشيخ من اليوم الثامن . فلم تمض عليه بضعة أيام إلا وقد رأى نفسه يطير فى عالم آخر غير الذى كان يعهد ، « فاتسع له ما كان ضيقاً ، وصغر عنده من الدنيا ما كان كبيراً ، وعظم عنده من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيراً . وتفرقت عنه جميع الهموم ، ولم يبق إلا همٌّ واحد ، وهو أن يكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس . ولم يجد له اماماً يرشده الى ما وجه إليه نفسه إلا ذلك الشيخ » الذى أخرجه فى بضعة أيام ، كما يقول ، « من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد الى إطلاق التوحيد » . . .

بلغ من سلطان الشيخ الصوفى على نفس مريده النافرة ، وهو فى عنفوان أزمة نفسية خطيرة ، أن استطاع ، فى خمسة عشر يوماً ، أن يروض جماحه ، وأن يلطف سره ، وأن يوجهه الى المعانى القدسية واللذائذ الروحية .

وغادر محمد « كنيسة أورين » بعد أن وجد فيها ضالته فى صحبة الشيخ درويش ؛ وعاد الى المسجد الأحمدى راضياً مبتهجاً لطلب العلم ، وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية (١٨٦٥) . ولكن اتفق أن بعض المشايخ كانت ماتت بنته، فعاقه الحزن عليها عن إتمام « شرح الزرقانى على العزية »، وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام «شرح الشيخ خالد على الآجرومية»؛ فأدرك الطالب كلا من الأستاذين فى أوائل الكتاب الذى كان يدرس ، وجلس فى الدرسين بين زملائه ، كما كان يجلس قبل ثلاثة أشهر ونصف . ولكن شتان بين العهدين ! لقد أحسّ الفتى فى نفسه تحولاً ملحوظاً : فهو اليوم ، و ببركة الشيخ درويش ، منصت لما يسمع ، واعٍ لما يقرأ ، فاهم لما يلقى إليه . . . و إن الله قد فتح عليه .

وعرف بعض الطلبة ذلك عن محمد ، فأخذوا يلتفون حوله فى بعض حلقات المسجد ، ويسألونه أن يطالع معهم الدروس . وفى صبيحة يوم من أيام رجب، بينا كان يطالع بين زملائه «شرح الزرقانى» ، مفسراً لهم معانيه ، اذا به يرى شخصاً فى هيئة « المجاذيب » ـ الذين « يظن كثير من الناس أن لهم فى صفحة الغيب لمحات » ـ وقد وقف ذلك الشخص أمامه ، ناظراً إليه ، منصتاً الى ما يقرأ . فلما رفع محمد نظره إليه قال المجذوب :

« ما أحلى حلوى مصر البيضاء ! »

فقال محمد عبده : « وأين الحلوى التى معك ؟ »

قال المجذوب : « سبحان الله ! من جد وجد » .

ثم انصرف الرجل لتوه ، وترك الفتى مسترسلا فى أحلام وأمانى كثيرة عن السفر الى المدينة الكبيرة ذات الصيت البعيد ، وشعر أن ذلك القول من المجذوب الهام ساقه الله إليه ، ليحمله على مغادرة طنطا ، وطلب العلم فى عاصمة مصر حيث يقوم الأزهر فخر العروبة ونور الاسلام .

* * *

فى أروقة الأزهر : وفى فبراير سنة ١٨٦٦ ودع الفتى والديه وزوجه ، وركب القطار الى القاهرة . وفى طريقه إليها أخذ ينظر من نافذة القطار ، متفرجاً على الحقول الخضراء المنبسطة على جانبى الطريق ، والبهائم الراقدة ترعى الكلأ والبرسيم ، والفلاحين القاعدين يأكلون ، أو المنبطحين على الأرض يتشمّسون ... وما تكاد هذه المناظر تُقبل عليه مسرعة حتى تُدبرَ عنه هاربة ؛ فساقه تداعى الخواطر الى ذكريات مألوفة عن « محلة نصر » و « كنيسة أورين » وطنطا . ولكنه نحّى عن باله هذه الخواطر كلها ، وأخذ يستشعر شيئاً من الزهو ، إذ وافاه الحظ ، فهيأ له الانتقال من الريف الى العاصمة .

ورأى محمد عبده من معالم القاهرة وآثارها ما طاب له أن يرى . ثم وقف عند الأزهر وقفات طويلة يتأمله ويدقق النظر فيه ، كأنما يريد أن يملأ

منه عينيه ! ترى أكان يخطر بباله يومذاك أنه سيكون له مع أهل ذلك المعهد نضال عنيف ، وان اسمه سيتصل بالأزهر ما دامت قضية الاصلاح قائمة ؟

وأقبل الطالب أول الأمر على مجالس الدرس فى الأزهر يقضى فيه نهاره وشطراً من الليل ، مستمعاً الى دروس النحو أو الفقه أو الأصول : يقرأ فيها المتون، ثم يقرأ على المتون الشروح، وعلى تلك الشروح الحواشى والتقارير !..

وكانت الروح السائدة فى الأزهر هى روح المحافظة على القديم ، وتغليب النقل على العقل ، والنفور من كل جديد . وبلغ من تعصب أنصار القديم لآرائهم أنهم كانوا يرمون خصومهم بالضلال والزيغ عن الدين . وكان محمد عبده مضطراً الى أن يحضر فى الأزهر على كثير من أولئك الأساتذة المحافظين أمثال المشايخ « عليش »، و «الرفاعى»، و «الجيزاوى»، و « الطرابلسى »، و « البحراوى » ... وسنرى بعد موقفهم منه حين يتقدم الى امتحان العالمية .

وكان ينافس حزب المحافظين حزب المتصوفين ، وعلى رأسهم الشيخ « حسن رضوان » . وكان لهذا الحزب مريدون بين أساتذة الأزهر وطلابه كالشيخ «حسن الطويل » والشيخ « محمد البسيونى » والشيخ «محمد المغربى» وكان طبيعيا أن ينضم محمد عبده الى حزب التصوف هذا ، لأنه أقل الحزبين جموداً على القديم وأقلهما نفوراً من الجديد ، ثم لأن التصوف كان أقرب الى قلب فتًى لم يزل مريداً متحمساً للشيخ درويش .

وقد آلى الشاب على نفسه ألاَّ يواظب على حضور دروس الأساتذة الذين لا يفهم منهم، وإذا لم يكن بدٌّ من الحضور فقد كان يحضر درس أحدهم وفى يده كتاب يطالع فيه. وربما كان الشيخ «حسن الطويل» من الأساتذة الذين استفاد منهم محمد عبده بعض الاستفادة. ولعل فى طريقة الشيخ الطويل شيئاً من الجدة والمرونة. ولكن ذلك الشيخ لم يكن له مذهب واحد مرسوم: فلا هو بالصوفى ولا هو بالمنطقى ولا هو بالفقيه؛ كان يدرِّس المنطق وشيئاً من الفلسفة الإسلامية؛ ولكن درسه «كان أكثره احتمالات» لا تكاد تنتهى الى الجزم بشىء، وتدعو النفس الى البلبلة والوسوسة، وتترك الذهن حائراً مرتاباً.

وفى أواخر كل سنة دراسية كان محمد عبده يذهب الى «محلة نصر» ليقضى بها أشهر المسامحة الصيفية، فكان يجد الشيخ درويش قد سبقه إليها. وهنالك يأخذ الشيخ درويش فى مدارسة الشاب ومحاسبته أيضاً على ماحصَّل من العلوم الأزهرية فى سنته تلك، فيسأله مثلاً: «مادرست المنطق؟ مادرست الحساب؟ مادرست شيئاً من مبادئ الهندسة؟»

فيجيب الشاب: «بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة فى الأزهر.»

فيقول الشيخ: «طالب العلم لا يعجز عن تحصيله فى كل مكان.»

كانت هذه الكلمات تقع من نفس الشاب موقع التأثير، فكان اذا

عاد الى القاهرة التمس تلك العلوم المهملة من الأزهر عند العارفين بها ، فكان يخطئ فى الطلب أحياناً ويصيب أحياناً. وبعد أن حضر محمد عبده فى الأزهر ثلاث سنين ، وقرأ جميع الكتب المقررة ، واستمع الى الدروس المعتادة فى تلك الجامعة ، سئمها ولم يرتح الى إعادة شىء منها ، وقد تطلعت نفسه الى درس علوم جديدة .

ارتضى الشاب ، أوائل مدة الطلب ، طريقَ الصوفية ، لأن فيه مجاهدة للنفس وعزلة عن الناس : فكان يصوم النهار ، ويقوم الليل بالصلاة والذكر ، ويمشى مطرقاً ، ولا يتصل بالناس ، ويستغفر الله اذا كلم أحداً كلمة لغير ضرورة !

ولما مضت على ذلك سبع سنوات ، رأى الشيخ درويش أن مريده قد كملت نفسه ، واستقام سلوكه ، وأصبح مأمون الوصول ، فقال له عند مارجع الى « محلة نصر » فى صيف سنة ١٨٧١ : « الى متى هذه العزلة ؟ وما الفائدة فى العلم وفى تحصيله ، اذا لم يكن لك نوراً تهتدى به ، ويهتدى به الناس ؟ إن من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك . وان من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة . فعليك أن تخالط الناس وتعظهم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة » .

فلما ذكر محمد عبده للشيخ الصوفى اشمئزازه من الناس ، وزهادته فى

معاشرتهم ، وثقلهم على نفسه اذا لقيهم ، و بُعدهم عن الحق ونفرتهم منه اذا عرض عليهم ، قال له :

« هذا من أقوى الدواعى الى ما حثثتك عليه . فلو كانوا جميعهم هداة مهديين لما كانوا فى حاجة إليك » .

ثم أخذ الشيخ درويش يستصحب الشاب فى مجالس العامة ، ويفتح له الكلام فى الشؤون المختلفة ، ويوجه إليه الخطاب ليتكلم ، فيتكلم الحاضرون فيجيبهم محمد عبده ، منطلقاً فى القول على وَجَل أول الأمر . وما زال الشيخ به حتى بعث عنده شيئا من الألفة مع الناس ، والاستئناس بالتحدث إليهم ... وفى شوال من تلك السنة ، ودّع الشيخُ الصوفى المجاورَ الأزهرى ، وبكى بكاءً شديداً ؛ ومات فى السنة الثانية .

عاد المجاور الى الأزهر بعد انقضاء الإجازة الدراسية الطويلة ؛ ولكنه عاد كارهاً له ، ملتمساً شيئاً آخر وراءه ، ولم يكن رأيه فيه خيراً من رأيه فى المسجد الأحمدى . كانت روح الجمود مسيطرة حينذاك على مناهج التعليم ، فصيرته جافا خالياً من كل ما ينفع الناس أو يرغّب فى العلم : فقد كان المعلم يقضى الأعوام فى قراءة « الشروح » على « المتون » ، و « الحواشى » و « التقارير » على « الشروح » !. . وكم استعبدت النصوص طلاباً وأساتذة ! وكم حالت قيود الألفاظ دون ادراك الحقيقة مجلوّة ناصعة ! ثم ان المعلم كان يلقى « مايعرفه أو مالا يعرفه ! » ، دون مراعاة لحال الطلاب ودرجة استعدادهم

للفهم ، حتى قال محمد عبده نفسه : « كنت أسمع الشيخ وهو يدرّس فأحسبه يتكلم بلغة أجنبية » ! وكان على الطلاب أن يحفظوا ما يقرأون ، قانعين بحشو الذاكرة بالمفردات اللغوية المختلطة ، والجزئيات الكلامية المضطربة التى لم يكن من شأنها إلا أن تشوش الذهن ، وترهق الفكر ، وتحول دون النظر السليم . ثم ان العالم الذى عرفه محمد عبده عند شيوخه فى الأزهر كان عالماً مقسماً مشتتاً مبعثراً ، لاوحدة له ولا تماسك فيه : إذ كان الشيوخ ينفقون أعمارهم ، كما قال الأستاذ أحمد أمين بك ، فى « بحث جملة تصح وجملة لا تصح ، ومؤلف أخطأ ومؤلف أصاب » ، ولا يجدون على أنفسهم غضاضة فى أن يكون لهم « منطق فى الكتاب ، ومنطق فى العمل ، ونظرية فى التصوف تنقضها نظرية فى الحكمة ، وأقوال فى الزهد يسلمون بها فى حينها ، وأقوال فى الحث على الانغماس فى الحياة يسلمون بها فى حينها أيضاً » !

ولسنا نجد فى هذا المقام خيراً من أن ننقل ما كتبه الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى يصف البيئة الأزهرية التى نشأ فيها محمد عبده . قال : « نشأ الشيخ فى عصر من العصور القاتمة . . . وذهب يتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمنابعها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم وأدبهم . وتعلم القواعد فى مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم ، لا تفهم الا بشروح وحواش وصناعة خاصة . فلا اللغة

العربيـة بمسعدة على إجادة النظم والنثر والـكتابة والخطابة ، ولا على فهم القرآن الـكريم وفق الأساليب العربية ؛ ولا الفقه بساد حاجة المجتمع وحاجة الحـكومات والدول فى التشريع والتنظيم ؛ ولا دراسة الـكلام والمنطق بموصلة الى الاستدلال الصحيح الذى يطمئن إليـه العقل ويقنع الخصم . المتحدث فى الاجتهـاد وتخيّر الاحكام ـ لتطابق الأحكامُ حاجةَ العصر ولتلائم أحوالَ الأمم وأحوال الأزمنة ـ مبتدعٌ مخالف لمـا أجمع عليه المحققون. والداعى الى سيرة السلف الصالح داعٍ الى مخالفة سيرة العلمـاء المبرزين . والداعى الى كتب الأولين مقصّر عن فهم كتب المحققين من المتأخرين . والمنادى بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ، ملئت بمعلومات خاطئة وبأوهام وقصص لفقّها من قبل علماء الاسرائيليات، مخالف لما درج عليه صالحو هذه الأمة وجهابذتها » .

قضى محمد عبده شبابه فى هذه البيئة العلمية، ضيق الصدر مرير العيش ، إلى أن وفد على مصر زعيم النهضـة الفـكرية ، وفيلسوف الشرق فى القرن التاسع عشر : السيد جمـال الدين الأفغانى ، فانبثقت تعاليمه فى تلك البيئة القاتمة كما ينبثق النور الباهر .

***

السيد الأفغانى : قدم السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر للمرة الأولى سنة ١٨٦٩ . وكانت شهرته قد سبقته الى هـذه البلاد . ولما سمع محمد عبده

بمقدم ذلك النابغة الكبير، ذهب لزيارته فى صحبة الشيخ « حسن الطويل » الذى كان أستاذاً للمنطق فى الأزهر . وتحدث السيد جمال الدين الى زائريه أحاديث طلية فى تفسير القرآن وفى التصوف الإسلامى ، فكانت شخصيته تخلب ألباب سامعيه .

ولما عاد الأفغانى من استنبول الى القاهرة سنة ١٨٧١ ، بادر محمد عبده إلى لقائه ، وتتلمذ له ، وأصبح يلازمه كظله . ولقد نشط الأفغانى لبث تعاليمه الحرة التى لم يكن للناس عهد بها ، وكان يقرأ لتلاميذه طائفة مختارة من الكتب العربية القديمة والكتب الأوروبية المعربة ، فى مختلف فروع الفلسفة والتصوف والتاريخ والسياسة والاجتماع . وكان ذلك فتحاً جديداً فى مواضيع التعليم يخالف ما كان سائداً منها الى ذلك الحين .

ووجد الشاب المصرى عند السيد الأفغانى روحاً جديدة غير مألوفة لدى شيوخ الأزهر : وجد عنده مذهباً فلسفياً واحداً ، ونظرة الى الحياة عميقة ، وصورة عن الكون منظمة . وبالإجمال وجد عنده تلك الفلسفة المتسقة الشاملة التى تتناول مجالى النظر والعمل ، وتشمل الله والعالم والإنسان .

ومن المحقق أن «جمال الدين» كان يفيض قوة ذاتية وسحراً فطرياً . فاستطاع أن ينفخ من روحه فى تلاميذه ، كما قال جرجى زيدان : « ففتحوا أعينهم ، واذا هم فى ظلمة ، وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه ، فضلاً عن العلم

والفلسفة ، روحانية أرتهم حالهم كما هى ، إذ تمزقت عن عقولهم حجب الأوهام فنشطوا للعمل فى الكتابة ، وأنشأوا الفصول الأدبية والحكمية والدينية » .

وكان طبيعياً ـ وقد اتصل المجاور الأزهرى بتلك الشخصية القوية الجذابة ـ أن يفتن بها ، وأن ينساق الى الطريق التى رسمتها له : فلا بِدْع اذن أن نرى اللاهوتى الشاب الذى كان يناصر فى « العقيدة المحمدية » آراء السنيين والأشاعرة ـ وهم يمثلون حزب المحافظين فى الاسلام ـ لا يتردد الآن فى التحول عن تلك الطريق ، واذا به فى « الحاشية على شرح العقائد العضدية » ينقلب مناصراً المعتزلة والعقليين ، وجميع النُّظّار من الأحرار والمتسامحين .

ولا بِدْع أيضاً أن ينصرف الشاب الصوفى عن ممارسة الزهد وعن اعتزال الناس ، وأن يأخذ فى تذوُّق الحياة العاملة ، مقتدياً بأستاذه جمال الدين ، وأن يُقبل على دراسة العلوم المختلفة التى خلت منها مناهج الدراسة فى الأزهر ، كالفلسفة وعلم الكلام والرياضيات والسياسة والأخلاق .

وقضى محمد عبده فى صحبة جمال الدين شهوراً يحيا حياة الفكر والروح ، وهو مبتهج متحمس نشوان ، متعطش الى ارتشاف المعرفة من ينابيعها الصافية ، متشوِّق الى شهود العهد الميمون الذى تتحقق فيه مُثُل الحق والخير والجمال .

ولا نزاع فى أن الشاب الأزهرى كان أنبه تلاميذ السيد الأفغانى ، وكان أشدهم تأثراً بطريقته ، وأكثرهم اعترافاً بفضله وعبقريته . ولم يفتْه أن يسجل ،

فى نغمة صوفيـة حارة ، اعجابَه باستاذه وحماسته له : فمن ذلك ما كتبه فى نسخة نقلها بخطه من كتاب قـديم حيث قال فى خاتمتها : « وكان الفراغ من قراءته وتقريره عند لسان الحق ، وقائد الخلق الى جناب الحق ، خلاصة من تجلّى بالحـكمة ، ومنقذ الضالين فى تيه الجهالة والغمة ، محيي الحق والدين ، أستاذنا السيد جمال الدين » ! ثم هو لا يتردد فى اعلان حماسته تلك فى با كورة مصنفاته : نجده يتحدث عن الأفغانى سنة ١٨٧٤ فى بداية « رسالة الواردات » ، فيصفه بصفتى « الحـكيم الـكامل والحق القائم » !

على أن السيد الأفغانى قد أحل الشاب المصرى من نفسه منزلة لا تسامى. ولا ريب أن ذلك الأستاذ النافذ البصيرة قد توسم فى تلميذه ما يبشر بالنبوغ، فقال فيه كلمته المشهورة يوم رحل عن مصر للمرة الأخيره سنة ١٨٧٩ : « لقد تركت لـكم الشيخ محمد عبده ، وكفى به لمصر عالماً »

وقد روى المخزومى باشا، الذى عاشر السيد الأفغانى ولازمه فى استنبول، أن السيد كان شديد الإعجاب بشخصية محمد عبده ، كثير الثناء على أخلاقه، فـكان كلما ذكره يقول : « الصديق » أو « صديقى الشيخ » . والظاهر أن ذلك أثار بعض الغيرة فى قلب « السيد عبد الله نديم »، وكان ممن يرتادون مجلس جمال الدين، فقال ذات يوم: « أيها السيد، ما غفلت مرة عن إضافة لفظ

« الصديق » الى الشيخ ، كأنه لم يكن لك بين الناس صديق غيره : إذ نراك تنعت من سواه بلفظ « صاحبنا » أو « فلان من معارفنا » !

فتبسم عند ذلك جمال الدين وقال : « وأنت ياعبد الله صديقى . ولكن الفرق بينك وبين الشيخ محمد أنه كان صديقى على الضراء ، وأنت صديقى على السراء » !

فسكت « عبد الله نديم » .

***

عطاء الشيخ عليش : أقبل السيد جمال الدين ، وهو فى مصر ، على تدريس بعض العلوم العقلية كما عرفنا ؛ وكان يحضر دروسه كثيرٌ من طلاب العلم ، ويتردد على مجالسه فريق من العلماء والموظفين والأعيان . وهو فى جميع أوقاته لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل أو يطهّر العقيدة ، أو يذهب بالنفس الى معالى الأمور ، أو يستلفت الفكر الى النظر فى الشؤون العامة ، مما يمس مصلحة البلاد وسكانها . فكان من أثر تعاليمه ، فيما يقول محمد عبده نفسه ، أن « استيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصاً فى القاهرة . وأخذ جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم ، وأرباب الأقلام ، على التحرير وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية ، فى مواضع مختلفة لا تخرج جامعتها عن إصلاح الأفكار وتهذيب الأخلاق ،

فتسابقت الى ذلك الكتاب وتيارات الأقلام ؛ وأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها أنه فى عالم خيال... » .

وفى سنة ١٨٧٦ شرع محمد عبده يكتب فى الصحف فصولاً فى مختلف موضوعات الثقافة العامة ، يحس قارئها ما يبذله المجاور الشاب من جهود للتخلص من وطأة العقلية السائدة فى الأوساط الأزهرية . غير أننا نستطيع أن نقول عموماً : إن فيما كتبه تلميذ جمال الدين حينئذ من مقالات أخلاقية واجتماعية دعوةً صريحةً الى حرية الفكر والى الإصلاح المتزن الجرىء معاً . نراه يلخص فى جريدة « مصر » درسين من دروس أستاذه عن فلسفة التربية وعن فلسفة الصناعة ، وينشر فى « الأهرام » الأسبوعية مقالات عن « الكتابة والقلم » وعن « المدبر الإنسانى والمدبر العقلى الروحانى » وعن « العلوم الكلامية والدعوة الى العلوم العصرية » ...

* * *

ذاعت تلك المقالات ، واشتهر محمد عبده بين أقرانه من الطلاب والمجاورين ، فالتفوا حوله ، وأعجبوا به ، وطلبوا إليه ، لما أنسوا فيه من دقة الفهم وحسن البيان ، أن يقرأ لهم ما كانوا يتلقونه فى الأزهر . وزاد هو عليه دروساً فى الفلسفة وعلم الكلام .

أما الشيوخ الجامدون فقد أوغرت صدورهم على ذلك المجاور الناهض

الذى أوشك أن يفسد عليهم أمرهم : لاتصاله بالسيد الأفغانى ، ثم لميله الى دراسة الفلسفة والعلوم العقلية ، وترجيحه لبعض آراء المعتزلة ، وتحرره من التقليد ، ودعوته الى التجديد ، وتحبيذه لعلوم الفرنجة ، واطالة شعره أخيراً !.

وكان طبيعياً أن يجد محمد عبده من الطلبة القاصرين المتخلفين من يحسده على نبوغه ، ويسعى للوشاية به الى « الشيخ عليش » ، وكان زعيم المحافظين المتحرجين فى الدين : ذهب بعضهم الى الشيخ ، ونقلوا إليه أن « محمد عبده » يعمل على إحياء مذهب المعتزلة ، والمعتزلة مشهورون بأنهم أحرار الفكر فى الإسلام ، فكبر ذلك على الشيخ عليش ، فاستدعى المجاور الشاب ، وقال له : ـ بلغنى أنك تقرأ « شرح العقائد النسفية » درساً !

— نعم

— وبلغنى أنك رجحت مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية !

— اذا كنت تحررت من تقليد الأشعرية ، فهل أرضى لنفسى تقليد المعتزلة ؟ اننى آخذ بالدليل ولا أقلِّد أحداً .

— أخبرنى الثقة بذلك .

— أين الثقة الذى يشهد بذلك ؟ فليأتِ ليميز أمامنا بين المذهبين ، وليخبرنا أيهما رجحت .

— أومثلك يفهم « شرح العقائد » ؟

— الكتاب حاضر وأنا حاضر . فسلنى إن شئت .

هذه المراجعة من طالب شاب لشيخ مهيب تنطوى يقيناً على قدر كبير من الجرأة بالقياس الى ما كان الحال عليه فى ذلك العهد . فكان طبيعياً أن يغضب «الشيخ عليش » ، ولعله همّ بضرب المجاور «محمد عبده» ، ولعله أراد أن يمنعه من إلقاء دروسه . . . وسواء أصحت هذه الروايات أم لم تصح ، فقد كان لتلك الحادثة دوىّ فى الأزهر . وقد ذكر السيد رشيد رضا أن « محمد عبده » لم ينقطع عن قراءة الدرس ، ولكنه كان يضع بجانبه عصا ويقول :

— « اذا جاء الشيخ (عليش) بعكازه ، فله هذه العصا » . !

* * *

امتحانه العالمية : لم يكن الأزهريون قبل سبعين سنة ، يعرفون نظام الشهادات الدراسية والدرجات العلمية التى تمنحها المعاهد والجامعات . ولم يكونوا يعرفون إلا «الإجازات» التقليدية التى كان العلماء والأساتذة يمنحونها تلاميذهم فى مادة معينة حفظوها أو فى كتاب معين قرأوه ، فأصبحوا قادرين على تدريسه لغيرهم .

وفى سنة ١٨٧٢ ، حين كان «الشيخ محمد العباسى المهدى» شيخاً للأزهر ،

صدر أول قانون لتنظيم الامتحانات الأزهرية : فأصبحت شهادة « العالمية » رسمية ، تصدر بوثيقة من الخديو ، بعد أداء الامتحان فى علوم الأصول والفقه والتوحيد والحديث والتفسير والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق ؛ ونظمت طريقة الحصول على العالمية ، وجعلت على ثلاث مراتب أو درجات : أولى وثانية وثالثة .

أتم محمد عبده دراسة تلك المواد الأزهرية ، وأراد الحصول على شهادة « العالمية » ، فعرض نفسه على لجنة الامتحان فى ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) .

ومحمد عبده نفسه يروى لنا أنه لقى فى ذلك الامتحان كثيراً من العنت ، وابتلى فيه « أشد الابتلاء » . كيف لا وهو شاب معروف بميوله العصرية ، وأكثر الشيوخ متحاملون عليه : يحسدونه على نبوغه ، ويخوضون فى دينه كما يخوضون فى دين أستاذه الأفغانى ! ولقد تبينا فى حادثة اصطدام محمد عبده مع « الشيخ عليش » بادرة من بوادر تلك العداوة العنيفة التى ستظل مستحكمة فى مصر بين أنصار القديم وأنصار الجديد .

هاهم الشيوخ قد أقبلوا فى تؤدة ووقار ، ليعقدوا لجنة الامتحان برياسة الشيخ محمد العباسى المهدى . ويالسخرية الأقدار ! هاهو ذا « الشيخ عليش » نفسه قد أقبل بعكازه ، وأخذ مجلسه بين الأعضاء . لقد حانت الساعة المرتقبة

للكيد والانتقام من تلميذ جمال الدين ، ذلك المجاور المتفرنج الذى يجسر على الاشتغال بالفلسفة وعلم الكلام !

ويظهر أن « الشيخ عليش » كان قد أقسم قبل الامتحان يميناً مغلظة ألاَّ يفلت الشاب الخاسر من يده ، وألاّ يظفر بدرجة ما . وتعصب الأعضاء مع الشيخ عليش ، وأجمعوا أمرهم ، ما عدا الشيخ العباسى ، على حرمان محمد عبده من العالمية ، والحيلولة بينه وبين التعليم فى الأزهر .

وبدأ الامتحان ، فظهر أن المقصود منه إنما هو « التعجيز » لا الإختبار: إذ وجهت صنوف الأسئلة النادرة الصعبة ، وأثيرت المشكلات الملتوية الشائكة . ولكن سرعان ما تخيب ظنون وتذهب أوهام ! فمحمد عبده أثبت ما يكون جناناً ، وأرفع من ممتحنيه بياناً ، وكأنّ التحدى لا يزيده إلا براعة وافتناناً . وهاهى ذى الحيرة ترتسم على وجوه الشيوخ ! لقد اسقط فى أيديهم ، ولم يعُدْ لهم من حول ولا طول مع « عفريت » « نمرود » كهذا المجاور ، شديد العارضة ، سريع التخلص ، حاضر البديهة . ولكن أنّى لهم أن يرجعوا الى الحق ، فيعترفوا للمجاور بالكفاية ، ويمنحوه العالمية من المرتبة الأولى ؟ إنهم إن فعلوا ذلك كانوا من الضعفاء المتخاذلين . إذن فليناقشوا وليراجعوا ، وليستطردوا ، لعلهم يجدون ثغرة ينحدرون منها الى شفاء ما بالنفوس من غل دفين . وهكذا كان ، حتى انقلب الامتحان لجاجاً ومناظرة ، وسادت الأقوال روح المماحكة والمهاترة .

ولم يجد محمد عبده نصيرا إلا المنصف الشيخ العباسى ؛ وكان ذلك الشيخ فى طليعة علماء العصر ذكاء وفهما ، ورغبة فى الإصلاح . وبلغ من إعجاب الشيخ العباسى بإجابات محمد عبده أن صرح لأعضاء اللجنة أثناء المداولة أنه لم ير فى حياته أحدا فى ذكائه وتثبته من علمه ، وانه يستحق الدرجة الأولى ، بل لو كان فوقها درجة أعلى لاستحقها .

وطالت المداولة ولم ينته الأعضاء الى رأى حاسم ، الى أن تقدم أحدهم بحل وسط ، فأخذ ورقة وكتب لمحمد عبده بنيل شهادة « العالمية » من « الدرجة الثانية » ؛ وعرضها على الأعضاء ، فوقعوها على مضض وبعد تلكؤ ، ووقعها الشيخ العباسى أيضا ، حسما للخلاف . وصدر بهذه الشهادة مرسوم باسم الخديو إسماعيل ، وتاريخه « غرة رجب سنة ١٢٩٤ هجرية (١٨٧٧ م) »[١]

* * *

(١) بعد ٢٦ سنة من حصول الشيخ محمد عبده على « العالمية » عادت مشيخة الأزهر ، وكأنها شعرت بما لحق الأستاذ الإمام فى شبابه من غبن ، فردت إليه حقه المسلوب ، ونقلته الى الدرجة الأولى ، وأرسلت إليه قرار مجلس إدارة الأزهر بهذا النقل ومعه خطاب بتاريخ ١٥ مايو سنة ١٩٠٤ من الشيخ على الببلاوى شيخ الأزهر حينئذ يبلغه ذلك القرار .

الأستاذ العالم : الآن أصبح من حق محمد عبده أن يقوم بالتعليم فى الأزهر ، فأخذ يلقى فيه دروسا فى التوحيد وفى المنطق والأخلاق . ويجدر أن نلاحظ أن الشيخ كان أول من ألقى فى ذلك العصر دروسا فى الأخلاق للأزهريين : ولا غرابة فى ذلك ، فما زال تلميذ الشيخ درويش « معنيًّا بتربية النفوس ، وتخريج الرجال العاملين » كما قال حسن باشا عاصم .

والظاهر أن تلك الدروس ، فضلا عن جدة موضوعها ، امتازت بطرافة المنهج ، وحسن العرض ، ففتحت أمام أعين الطلاب آفاقا جديدة ، وأشعلت فى نفوسهم نار الحماسة ، فكانوا يسهرون فى البحث والمذاكرة حتى مطلع الفجر . . .

أصبح الشيخ الشاب أستاذا ، ولكنه كان طلعة لا ينى عن الدرس ، ولا ينقطع عن التأمل : أقبل على الثقافة العامة ينهل منها ، ومما ترجم من الكتب الى اللغة العربية فى العلوم الحديثة ، وقرأ فى داره لطائفة من الطلاب بعض الكتب القديمة ككتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه ؛ ودرس أيضاً كتاب « التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوربية » للمؤرخ والوزير الفرنسى « جيزو » ، وكان قد ترجمه الى العربية « نعمة الله خورى » .

وفى ذلك الحين انضم الشيخ محمد عبده ، فيما يظهر ، الى المحفل الماسونى

الانجليزى « كوكب الشرق » التابع للمحفل الأكبر فى انجلترا . وكان أعضاؤه نحوا من ٣٠٠ من صفوة البلاد . وكان ذلك المحفل يعمل على إنشاء روابط التعاون وتبادل الأفكار بين رجال وقفوا على خفايا السياسة ، فكان ذلك نواة « للحزب الوطنى » الذى سينمو بعد .

وفى أواخر سنة ١٨٧٨ عيّن الأستاذ مدرسا للتاريخ بمدرسة « دار العلوم » ومدرسا للغة العربية فى « مدرسة الألسن » . وبدأ الشيخ محمد عبده تعليمه فى « دار العلوم » بمحاضرات فى « مقدمة ابن خلدون » : فكان يبسط آراء المؤرخ الفيلسوف فى أصول المدنية والاجتماع ، وأسباب تقدم الأمم واضمحلالها مبيناً ما انطوت عليه « المقدمة » من مبادئ اجتماعية وتاريخية ، سالكا فى ذلك مسلك الامام المجتهد الذى لا يقبل الرأى عن تقليد ، بل بعد الفحص عنه ، و إقامة الدليل عليه .

فلسفة ابن خلدون ! لقد كان محمد عبده مبتكرا ، لا فى اختيار الموضوع فحسب ، بل وفى منهج التعليم أيضا .

ومضى الأستاذ محمد عبده يؤدى فى بهجة وحماسة ، المهمة التى خلق لها ، والتى كان يرى فيها وسيلة لإصلاح الفاسد وتقويم المعوج . ولكن سرعان ما حالت السياسة بينه و بين التعليم ! فقد أجبر « الخديو إسماعيل » ، بسبب تبذيره وما جرّه على البلاد من اختلال ماليتها ، وتدخل الأجانب فى إدارة شؤونها ، على أن يتنازل عن عرشه فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٩ ، بعد أن درب

على السلطة المطلقة سبع عشرة سنة . وولى ابنه « توفيق باشا » ، وكان ناشئا حديث عهد بالعمل ، وكان ـ كما يقول محمد عبده ـ « لا يأنف لذة الملك ولا أبهة السلطان . . . وآماله فى المستقبل تستدعيه فى كل آن لحل ما وجده من العقد ، ووضع حد لتلك المصاعب التى جرت الى مثل ذلك الانقلاب الذى لم يكن فى حسبان » .

وكان جمال الدين ومريدوه قد اتصلوا بتوفيق ـ وهو ولى العهد ـ واتفقوا معه على تغيير شكل الحكومة ، وإصلاح مساوئها ، فكان « توفيق » يعدّ « السيد » و « الشيخ » من أقوى أنصاره . وكان الأفغانى وتلميذه يعلقان على ولى العهد آمالا كبارا . ويقول رشيد رضا إنه لما انتهى الخلل والاضطراب بخلع إسماعيل ، ذهب الأفغانى إلى صديقه الخديو الجديد « وطفق يطالبه بإنجاز وعوده ، وأولها إنشاء مجلس نواب وجعل الوزارة مسئولة » .

وبدت بشائر الإصلاح على يدى توفيق . ولكن وجد من الواشين من غيّر قلبه على « السيد » و « الشيخ » ، وأوهمه أنهما يسعيان فى تقييد سلطته أو إزالتها . فانقلب توفيق على صديقيه بالأمس ، وأراد أن يتخلص منهما مرة واحدة : فأمر بنفى «جمال الدين» : فأخذ السيد من داره ليلاً فى عربة مقفلة وليس عليه غير قميص واحد ، وأرسل فى قطار خاص إلى السويس ، ومن هناك ذهب إلى الهند . وأمر الخديو أن يعزل الشيخ « محمد عبده » من

مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن ، وبأن يقيم فى قريته « محلة نصر » ، لا يفارقها إلى بلدة أخرى ، وخاصة عاصمة البلاد والمدن الكبيرة كالإسكندرية وغيرها .

وهكذا جاء عزل محمد عبده أثرا من آثار الرجعية والاستبداد : فمن جهة فزع الشيوخ الجامدون مما يبثه تلميذ الأفغانى من نقد لاذع لما ألفوا فى الدين من معتقدات وأوهام ؛ ومن جهة أخرى أشفق الحكام المتغطرسون مما يدعو إليه الأستاذ الثائر من آراء فى الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية .

الإصلاح

« **المحرر الأول** » فى « **الوقائع المصرية** » : كان رياض باشا « ناظر النظار » غائبا عن مصر عند ما وقعت تلك الحادثة لجمال الدين ومحمد عبده ، فلم يستطع أن يتدخل للحيلولة دون نفى صديقه السيد الأفغانى ، ولما عاد رئيس الوزراء من الخارج ، وعرف أن تلميذ « الرجل الكبير » منفى فى قريته ، لا يستطيع أن يبرحها ، سعى لإصدار العفو عنه سنة ١٨٨٠.

وتوجهت عناية « رياض باشا » إلى إصلاح شأن « الوقائع المصرية » ، وكانت لسان الحكومة الرسمى ؛ وشرع يعمل على تحريرها على وجه يستميل الناس للاطلاع عليها ، فاستشار « الشيخ حسين المرصفى » و « محمود باشا سامى البارودى ، كلا على حدته ، فأشارا برأى واحد كأنهما تواصيا به : وهو جعل الشيخ محمد عبده محررا فيها . وعمل رياض باشا بما أوصياه ، وعيّن الشيخ « محررا ثالثا » بالجريدة . وبعد أشهر طلب رياض باشا إلى الشيخ محمد عبده أن يضع تقريرا وافيا فى إصلاح « الوقائع » ، وأمر بأن تنظر فى

التقرير لجنة مؤلفة من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير ؛ وأمر بأن توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية . فوضع محمد عبده اللائحة وأقرها رياض باشا ، وعيّن الشيخ رئيسا لقلم تحرير الجريدة ، وصُرِّح له أن يستعين على تحريرها بأهل الكفاية من الكتاب الذين « تستميل الناس أقلامهم وتنبعث الرغبات إلى النظر فيما يقولون ، فاختار محمد عبده بعض من يثق بهم من تلاميذ جمال الدين ممن دربوا على الكتابة والتحرير: أولهم الشيخ عبد الكريم سلمان ـ الذى ظل إلى آخر حياته من أخلص أصدقاء محمد عبده ونصيره فى مجلس إدارة الأزهر ـ ثم «الشيخ سعد زغلول»، وكان يومئذ مجاورا أزهريا فى نحو الحادية والعشرين من سنه ، ثم « الشيخ إبراهيم الهلباوى » الذى أصبح فيما بعد إبراهيم بك الهلباوى المحامى .

ولا يسعنا هنا إلا أن ننقل ما كتبه محمد عبده نفسه فى وصف حال « الوقائع المصرية » قبل أن يتولى رياسة تحريرها . قال : « كانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعمد البلاد توزيع الضرائب : ترسل إلى من ترسل إليه بغير طلب ، ويجبر على دفع قيمتها بالوسائل التى كان يجبر بها الممولون على الدفع . فأراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة فى ذاتها تحمل الناس على طلبها ، رغبةً فيها ، ليقفوا على ما تتضمنه من الأوامر واللوائح ، فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم ، من غير إكراه من الحكومة لهم على ذلك . وكان قد أحس بتوجه الأفكار إلى طلب شىء

من طلاوة العبارة ، ووفرة المعنى ، وحسن الانتقاد ، أما أوامر الحكومة وحدها فلم تكن مما تحرك النفوس للاطلاع عليها فى الجريدة الرسمية ، لأن المأمورين يعرفونها من طريق أخرى ، والأهالى لم يكونوا قد تعوّدوا معاملة الحكومة بما تنشره ، ولا على أن تكون طاعتهم لها منحصرة فيما يكتب وينشر بوجه رسمى ، ولا على الثقة بأن الحكومة تقف عند ما تحدّه فى أوامرها . لهذا لم يكن لهم اهتمام فى الأغلب إلا بأشخاص الحاكمين دون ما يكتبونه ؛ ولم يكن للجريدة الرسمية وراء أوامر الحكومة إلا مدائح للجناب الخديو وبعض كبار المأمورين على الطريقة القديمة . وهذا مما كان ينفر من رؤيتها » . . .

وتقضى اللائحة التى وضعها محمد عبده لإصلاح « الوقائع » بتكليف جميع مصالح الحكومة وإداراتها أن تخبر الجريدة بما رسمت من مشروعات وما انجزت من أعمال ، كما تقضى بالزام المحاكم بأن ترسل إليها نتائج ما أصدرت من أحكام . وأعطت اللائحة لرئيس التحرير الحق فى انتقاد ما يراه منتقدا من الأعمال ومن المكتوبات الرسمية ، كما أعطته حق الرقابة على الصحف التى تصدر فى مصر من عربية وأجنبية ، وحق إنذارها مع معاقبتها حتى بالتعطيل الدائم أو الى أجل معين ، لإلزامها « الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب ، مع اطلاق الحرية لها فى تبيين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب بدون خوف » .

وأنشأ « رئيس التحرير » بالجريدة الرسمية قسما غير رسمى ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعا من المقالات الإصلاحية فى شؤون التربية والأخلاق والاجتماع والاقتصاد .

وكان « أول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التى كانت متبعة فى النظارات والإدارات : فأخذت بتبين وجه الخلل فيها ، واضرارها بفهم المعانى المطلوبة ، واقتضائها لطول المخابرات فى الاستفهامات التى لا طائل تحتها ، ثم ترسم الطريقة الفضلى التى يجب السير عليها . فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الإلمام باللغة العربية من موظفى الحكومة ، وحضّهم رؤساؤهم بمكاتبة الجريدة الرسمية سترا لعيوب الإدارات ؛ واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير » . وقد أنذر محمد عبده مرة مدير جريدة شهيرة بتعطيل جريدته إذا لم يختر لها محررا صحيح العبارة فى مدة معينة ، فأسرع مدير الجريدة إلى تنفيذ ما أراد رئيس قلم المطبوعات . وأدت هذه الخطة الى ظهور طائفه من الكتاب والمحررين المجيدين وكانوا من قبل مجهولين مغمورين .

وقد كان من نتائج نشاط محمد عبده فى تحرير الجريدة الرسمية أن بعث بين مختلف الادارات الحكومية تنافسا شريفا فى العمل لتنال كل منها تقدير السلطات العليا ؛ و بعث النقد فى نفوس الموظفين اهتماما جديًّا بما يعملون واستعدادا لفهم الاصلاح المنشود .

وأثمر انتقاد محمد عبده لأعمال الحكومة ، فدعاها الى تحرى الحق والعدل وبذل الجهد فى إصلاح كل نظارة وكل مديرية . حدث أن وجهت الجريدة الرسميـة نقدا شديدا إلى مدير بنى سويف حينئذ ؛ فاستاء المدير منه وأصدر أمره بمنع دخولها فى مديريته ، وراجع وزارة الداخلية فى أمرها ، زاعما أن انتقاد أعماله يحط قدر السلطات الحكومية فى نظر الناس . ولكن وزارة الداخلية لم تأخذ بوجهة نظر المدير ، فأعادت إليـه شكواه ونشرت فعلته فى منشور عام ، وأدرج المنشور فى الجريدة ، فعلم « أن سلطة الجريدة الرسميـة فوق سلطة المديرية » كما قال رشيد رضا .

« ولم يُضع رئيس التحرير فرصة فى انتقاد نظارة المعارف وسير التعليم ، وإظهار معايب التربية ، وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الإصلاح ، فغضب لذلك ناظرها (ع . ا . باشا) وكان بطىء الحركة خامد الفكر ، بعيدا عن الإحساس بحاجة الوقت ؛ فاشتكى إلى رياض باشا من اقتفاء الجريدة له ، وتنقيبها على مواضع الخلل من أعمال نظارته . فلم يسمع منه ، بل أجيب إلى أن الحق أولى بالتأييد : فإن كان ما ذكرته الجريدة الرسميـة غير صحيح ، فما على الناظر إلا إقامة الدليل على ذلك ، وهى مستعدة لنشره . فسكت لأن ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد فى سبيل انتقاده » .

وكان من نتائج عناية محمـد عبده فى الجريدة الرسمية بشؤون التربية

والتعليم ، ونشره المقالات النقدية عن سياسة التعليم فى كلياتها وجزئياتها ، أن أنشئ « المجلس الأعلى للمعارف » فى ٣١ مارس سنة ١٨٨١ . وانتخب الشيخ عضوا فيه ، فناصر حرية التعليم ، وبذل الجهد لترقيته وتوجيهه وجهة صحيحة .

***

بالرها من عمامة : كان الشيخ محمد عبده فى تحرير « الوقائع » معلما ومصلحا فى آن واحد . كانت غايته رفع مستوى الأمة ، وتقويم أخلاقها ، والنهوض بها نهضة اجتماعية حقيقية ، فى تدرج وأناة وتطور ، ومن غير عنف ولا طفرة . وكان يعتقد أن ذلك يتم للأمة إذا سلك بها قادتها سبيل التثقيف والتربية ونشر التعليم ، لا سبيل تقليد الغرب من غير فهم ولا إدراك عميق ، أو التمسك بظواهر المدنية المادية مع الغفلة عن صميم المدنية الروحية الصحيحة ، وها هو ذا الشيخ يكتب بنفسه فى الجريدة الرسمية بهذا المعنى فيقول : « من الخطأ ، بل من الجهالة أن تكلف الأمة بالسير على مالا تعرف له حقيقة ، أو يُطلب منها ما هو بعيد عن مداركها بالكلية ، كما أنه لا يليق أن يطلب من الشخص الواحد مالا يعقله أو ما لا يجد إليه سبيلا . وإنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة فى عقول أفرادها ، ثم يُطلب بعض تحسينات فيها لا تبعد منها بالمرة . فإذا اعتادوها طُلِب منهم ما هو أرقى بالتدريج ، حتى

لا يمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى من حيث لا يشعرون . أما إذا وُضع لهم من الحدود ما لم يصلوا إلى كنهه ، أو كلِّفوا من العمل ما لم يعهدوه ، أو خُوِّلوا من السلطة ما لم يعودوه رأيتهم يتخبطون فى السير لخفاء المقصود عنهم ، وضلال الرأى فيما لم يكن يمر على خواطرهم » .

فاذا كان بعض المفكرين فى مصر قد أراد « أن تكون بلادنا ، وهى هى ، كبلاد أوروبا ، وهى هى » فهم « لا ينجحون فى مقاصدهم . . . ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح . . . فلا يمر زمن قريب الا وقد بطل المشروع ، ورجع الأمر الى أسوأ مما كان » .

ويتوجه الشيخ الى العقلاء بالخطاب فيقول : « فمن يريد خير البلاد فلا يسعى إلا فى إتقان التربية . وبعد ذلك يأتى له جميع ما يطلبه ـ إن كان طالبا حقا ـ بدون إتعاب فكر ولا إجهاد نفس » . وكم من مرة نبه الشيخ إلى ضرر الإفراط فى « تقليد الأوروبيين ومجاراتهم فى عاداتهم التى نظنها تفوق عاداتنا البسيطة » ، كما حمل على ذلك الوهم الذى استولى على نفوس بعض الأغنياء عندنا ، فجعلهم يظنون أن المدنية عبارة عن تحصيل ضروب اللذات واستكمال وسائل الترف ، مبينا لهم أن ذلك بعيد عن روح التمدن الحقيقى ، الذى هو حب العمل ، وبذل الجهد ، و « الإحساس بوجوه اللذائذ والآلام ، والتنشيط فى طلب وجوه الكسب المتنوعة ، وطلب الأمنة على

تلك الوجوه ، ومراعاة الحقوق والواجبات الطبيعية والشرعية » ...

وقد كتب رئيس التحرير فى « الوقائع » مقالات كثيرة تدل على مبلغ عنايته بالتربية ، وحرصه على نشر التعليم كوسيلة لتحقيق الإصلاح الأخلاقى المنشود فقال : « إن الغرض الحقيقى من تأسيس المدارس والمكاتب والعناية بشأن التعليم فيها ، إنما هو تربية العقول والنفوس » ، وقال : « مرادنا من تربية العقول إخراجها من حيز البساطة الصرفة والخلو من المعلومات ، وإبعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة ، إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحه تحدث لها ملكة التميز بين الخير والشر والضار والنافع » .

واستطاع الشيخ المصلح أن يستعين «بالوقائع» لبث مبادئ الوطنية فى نفوس المصريين ، مبينا للناس أن فى الوطن من موجبات الحب ثلاثة أمور : « الأول أنه السكن الذى فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد . والثانى أنه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار الحياة السياسية . . . والثالث أنه موضع النسبة التى يعلو بها الإنسان ويعز أو يسفل ويذل » . ودعا الشيخ أيضا إلى احترام القانون ، وتطبيقه بروح المساواة والعدالة ، وحث المصريين ـ حكومة وشعبا ـ على أن يتعاونوا على الخير ، وعلى أن يتوخوا المنفعة العامة فى أعمالهم فقال : « إنما تسعد البلاد وتستقيم حالها إذا ارتفع فيها شأن القانون ، واحترمه الحاكمون قبل المحكومين ، واستعملوا غاية الدقة فى فهم فصوله وحدوده ، والوقوف على حقيقة مغزاه ، وسهروا لتطبيق أعمالهم جزئية وكلية على منطوقه

الحقيقى ومفهومه . . . عند ذلك تحيا البلاد حياة حقيقية» . وكتب الشيخ مقالات نقدية فى شؤون كثيرة أخلاقية واجتماعية ودينية : فوجه النقد مثلا الى ما يدور فى بيوتنا ومجالسنا ومجتمعاتنا ، وحمل على الرشوة و « المحسوبية » والاعتقاد بأنهما سبيل لقضاء المصالح ، وذم الإسراف والتبذير ؛ ودعا الى الاقتصاد ، وقرر أن الفقر الحقيقى إنما هو فى نقص التربية وسوء التدبير ؛ وصرح بما فى نظام تعدد الزوجات من خطر على نظام الأسرة ، مبينا أن مقصد الإسلام هو الاكتفاء بزوجة واحدة ؛ ثم حمل على كثير من البدع الدينية الضالة ، مناديا بوجوب إبطالها وتطهير شعائر الإسلام منها .

***

على أن جهود الشيخ محمد عبده ومعاونيه فى تحرير « الوقائع » كانت باعثاً لنهضة أدبية وتجديد فى أساليب الكتابة : فقد كان أدب ذلك العصر سقيما سقماً ورثه عن العصور المظلمة ؛ ولم يكن للجرائد عناية بضبط المعانى وتهذيب العبارات . وإنما كانت الكتابة ، فيما روى عبد القادر حمزة باشا ، تجرى على سُنّة التعلق بالألفاظ أكثر من المعانى ، بل دونها ، حتى كانت تطغى عليها فتفسدها ، فلا يرى الكاتب فى ذلك ضيرا ، ما دامت قريحته قد يسرت له أن يرصّ ألفاظا مسجوعة من طراز خاص واحدا منها بجانب الآخر . « فكان الكاتب ربما شرع يعالج موضوعه ، فيقدم له بمقدمة طويلة

ذات ذيول جرارة ، ثم لا يمسّ جوهر موضوعه بعد ذلك إلا من بعيد ، وفى كلمات قليلة مبهمة ، أو قد لا يمسه قط . وكان البارع من الكتاب هو الذى يمهر فى هذا الأسلوب ، فيكتب طويلا وكأنه ما كتب ، ويقرأ له القارئ كثيراً وكأنه ما قرأ » .

ففى هذا الوسط قام الشيخ محمد عبده يعلّم الكتاب والقرّاء أن الكتابة هى « الإبانة عن الغرض لا الإلغاز فيه ، وأن أساس البلاغة القصد فى التعبير والدقة فى الأداء » .

ومن الميسور للقارئ أن يتبين مما أوردنا من كلام الشيخ فى « الوقائع » أن المحرر الأول قد تحرر من أسلوب السجع المتكلف ، وقد كان شائعا وقتذاك ، وأرسل الكلام مطلقا من القيود المألوفة ، وقصد الى المعنى دون دوران ، وانفتحت أمامه آفاق الكتابة فى شتى الأغراض بمقدار ما تناولت نظرته من وجوه الإصلاح العام . ولا بدع فى ذلك فقلما كان يخلو عدد من أعداد الجريدة الرسمية من فصل فى انتقاد عمل من الأعمال العامة ، أو الدعوة الى فضيلة من الفضائل التى يبنى عليها المجتمع ، أو طلب إصلاح عادة من العادات الرديئة . فكانت « الوقائع » تخاطب الشعب بلسان الحكومة ، وتخاطب الحكومة بلسان الشعب ؛ لهذا كان لما يكتب فيها من الأثر فى النفس مالم يكن لما يكتب فى غيرها من الجرائد .

لم يكن « المحرر الأول » من أرباب المنازل السامية فى مصر ، ولكنه كما قال هو عن نفسه : « نبت فى تربتها ، واتصلت حياته بحياتها ، وأشربت مداركه الإحساس بحاجتها : فكلما تناول عملا مما له علاقة بشؤونها العامة ، فتح له هذا الإحساس بابا من المعرفة بطريق إيصال منفعة من المنافع إليها » . ولم يكن فى ذلك محل للعجب ، وإنما العجب حقا ـ كما قال رشيد رضا ـ أن ترى « صاحب عمامة أزهرية يدخل فى حكومة مطلقة ، بعيدة فى أعمالها عن رجال العلم والدين ، فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها : فيصلح لعالها ما يكتبون ، ويرشدهم الى إصلاح العمل فيما يعملون ، ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الأمة ، فيقوّم من أخلاقها ، ويصلح ما فسد من عاداتها . . . ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية ، فيعلمها حسن التحرير ، ويربيها على الصدق فى القول . . . »

فيالها من عمامة شرفت برأس صاحبها ، حتى حسدتها الطرابيش واحترمتها البرانيط !

***

نسمات إصلاح : بينما سار الشيخ محمد عبده فى الجريدة الحكومية تلك السيرة الإصلاحية التى وصفنا ، اتجه « رياض باشا » ناظر النظار حينئذ

وجهة فى الإصلاح حميدة ، فألغى « السخرة »، وكانت عبارة عن إكراه الحكومة وذوى النفوذ الفقراء على العمل بغير أجر فى المصالح العامة أو الخاصة، كتشييد المبانى ، وحفر الجداول و إقامة الجسور ... واهتم رياض باشا بتوزيع مياه النيل بالعدل و بلا تفريق بين الأغنياء والفقراء ؛ وألغى الكثير من الضرائب الصغيرة التى كانت تضر بصغار المزارعين والتجار والصناع من المصريين ؛ ووضع نظاما لتدبير الميزانية ، ونظاماً « للتحصيل فى الأوقات المعينة » ؛ وأصدر الأمر بمنع استعمال الكرباج والحبس فى تحصيل الأموال الأميرية ؛ ووجه عزيمته لإصلاح المحاكم الأهلية وما إلى ذلك .

بهذا وما سبقه من أعمال الشيخ محمد عبده فى « الوقائع » « تنبهت الأفكار ، وبدأت الحياة الاجتماعية تدب فى جسم أمة فرقها الظلم وأماتها الجور ، وانبعثت النفوس تطلب ما شعرت به من حاجاتها ، فتألفت بعض الجمعيات الخيرية إسلامية وقبطية لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالتربية ؛ ولم يكن يسمع بمثل ذلك فى مصر من قبل »

« وكان أهل الأصالة فى الرأى يتمنون لو استمر سير الحكومة فى سبيلها ذلك عشر سنين على الأقل ، فيأخذ الشعور بمنافع البلاد مكانه ، ويستوى سلطان الإرادة السليمة على عرشه ، وترسخ الملكات الحسنة فى نفوس

المستبدين بمقتضى ميل الفطرة لاقتنائها — وكانت زعازع الاستبداد تحيد بهم عما أعدهم الكرم الإلهى — وتعود الى النفوس سكينتها بعد ذلك الاضطراب الشديد ، وعند ذلك كان يتهيأ لأهالى البلاد أن ينزعوا الى نظام أكمل مما أعطى لهم، وأن يطلبوا سبيلاً الى تخفيف شىء مما كان لا يزال يثقل عليهم .

« ولكن وا أسفاه ! حال دون بلوغ تلك الأمانى أمور : منها ما كان منشؤه رياض باشا نفسه وبعض النظار ، ومنها ما له علاقة بالجناب الخديو ، ومنها ما سببه امتداد السلطة الأجنبية الجديدة ، ومنها نهوض الساخطين لاستعمال ما وجدوا فى ذلك من الوسائل لإثارة الفتنة ، ولقلب وزارة رياض باشا . . . »

***

وكان محمد عبده من مؤيدى وزارة رياض باشا الإصلاحية ، وكان يفضل هذا النوع من الحكومة على إنشاء حكومة نيابية قبل أن تستعد الأمة لها ، وكان يرى فى شخص رياض باشا صورة حسنة للمستبد العادل الذى يستطيع « أن يصنع فى خمس عشرة سنة ما لا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرناً »، على نحو ما بيّن الشيخ نفسه فى مقال له مشهور عنوانه : « إنما ينهض بالشرق مستبد عادل » ، ذكر فيه من مزاياه أنه « مستبد يُكرِه المتناكرين على التعارف ، ويلجئ الأهل إلى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة ، إنْ لم يحملوا أنفسهم

على ما فيه سعادتهم بالرغبة ؛ عادل لا يخطو خطوة إلاّ ونظرته الأولى الى شعبه الذى يحكمه ، فإن عرض حظ لنفسه ، فليقع دائما تحت النظرة الثانية ؛ فهو لهم أكثر مما هو لنفسه» .

« خمس عشرة سنة يثنى فيها أعناق الكبار الى ما هو خير لهم ولأعقابهم ، ويعالج ما اعتل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج ، ومنها البتر والكى إذا اقتضت الحال ، وينشئ فيها نفوس الصغار على ما وجّه العزيمة نحوه ، ويسدد نياتهم بالتثقيف ، يتعهدها كما يتعهد الغارس شجره . . خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيما من أعوان الإصلاح . . . » ؛ حتى اذا صح الشعور ، واستقامت الأفكار ، أباح لهم قدراً من الحرية : « وأول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ، ثم بعد سنين تأتى مجالس الإدارة ، لا على أن تكون آلات تدار ، بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار ، ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية » .

***

بواكير العواصف : قلنا إن هنالك أسباباً كثيرة حالت دون استتباب الأمر لرياض باشا والسير فى سبيل الإصلاح المنشود . ومن تلك الأسباب تصرف رياض باشا نفسه ؛ فان إلغاءه السخرة قد أحنق عليه الباشوات وأهل النفوذ ، ممن كانوا يستغلّون أموال الناس وأبدانهم ، فألّفوا جمعية وجريدة

القصد منهما مقاومة رئيس النظار والحط من أعمـــاله . وكذلك زيادته مائة وخمسين ألف جنيه فى أموال الأطيان العشورية ، دون أن يبيّن ما يبرر تلك الزيادة ، قد أثار عليه سخط الـكثيرين من أعيان البـلاد وأغنيائها ، وسهل لنوبار باشا أن يثيرهم عليــه ، وأن يدعوهم الى المظاهرة والشكوى . وقمع رياض باشا تلك الحركة وأبعد زعماءها عن البلاد؛ « ولـكن جرح الأغنياء لم يبرأ ألمه بذلك » ، كما يقول رشيد رضا . يضاف الى هذا أن رياض باشا أعطى المديرين ورجال الأمن فى البـلاد سلطة واسعة أساءوا استعمالها : فأخذوا الأبرياء بالظن والشبهة، فأقلق ذلك خواطر الناس وخافوا أن يصيبهم ما أصاب غيرهم .

ويقول محمد عبده فى ذلك : « فمن مسه ظلم المأمورين ولم تسمع شكواه . ومن يترقب أن يؤخذ بما أخذ به غيره بغير محا كمة عادلة . ومن نكبته شبهة مخيّلة لا حقيقة لهـا . ومن يخاف أن يتمثل فى خيال حا كم جاهل بصورة لا تعجبه فيناله ما نال صاحبـه : كل أولئك وإن كانوا لا ينكرون فضل الحـكومة فيما أتته من الإصلاح ، كانوا يطلبون تغيير هذه الحال بما هو أدعى للسكينة والاطمئنان وتوفير المنافع . وأنزهم غرضاً كان يؤمل أن رياض باشا ينتبه الى ذلك من نفسه بمـا تـكشفه التجربة فى زمن قصير أو طويل . أما الضجرون ، ومن لا تبلغ المصالح العامة من نفوسهم مبلغ أدنى مصالح الخاصة

فضلاً عن أقصاها ، فقد كانوا يتمنون سقوط وزارة رياض باشا من ساعة الى أخرى ، ولا يكفون عن الطعن فيها والتنديد بها مهما استطاعوا »

وعاد حديث الناس فى السياسة الى ما كان عليه أواخر عهد إسماعيل وأول عهد توفيق ، وأخذوا يقولون : « لا صَلاحَ فى الاستبداد بالرأى وإن خلصت النيات : فرأىُ واحدٍ عرضة للخطأ ، وإن تحققت نزاهته من الغرض » . وانبعثت فى نفوس الناس مرة أخرى تلك الرغبة القديمة فى « تأسيس الحكومة على قاعدة الشورى ، ومنح بعض منتخبين من الأهلين حق المشاركة فى كليات أعمال الحكومة » .

ولكن رياض باشا لم يكن كبير الثقة فى تحقيق الإصلاح عن طريق مجلس الشورى : إذ كان يرى أن غالب أعضاء المجلس تعوزهم الخبرة بالأحوال السياسية والإدارية ، فلا ينتظر منهم إلا كثرة المعارضات وطول المناقشات ، فى أمور تتطلب التصميم وسرعة البت . وقد خاطبه بعض الوجهاء فى تخويل المجلس بعض الحقوق ، والتوسع فيها بعد ذلك بالتدريج ، فرفض رفضاً باتاً . فكان ذلك مما أجج تلك الرغبة فى النفوس ، ولو أنه — كما يقول محمد عبده — « أجاب بالرفق ، ووضع المسألة موضع البحث ، وطاول فى بتّها سنين ، لكان قد أرسل الآمال تسرح فى فسحة من النظر ، ولم يكن قد دعاها بالشدة الى الانضمام الى من يؤلب عليه ويثير الأحقاد حواليه » .

وممن كان سبباً من الأسباب المهمة فى إثارة الأحقاد على الوزارة الرياضية أحد أعضائها « عثمان رفقى باشا » وزير الحربية . وصفه محمد عبده بقوله إنه « كان رجلاً ساذجاً محدود الإدراك ، بعيداً عن التبصّر فى العواقب ، لم يكن يهمه بعد قبض راتبه الشهرى سوى أن يرضى ميله ، ويروى ظمأه الى حصر السلطة العسكرية فى بنى جلدته من الجراكسة ، وتجريد من ساء حظهم بالولادة فى مصر منها مع معاملتهم بالاحتقار . كان يطيع فى ذلك تلك العصبية الممقوتة التى يبطنها بعض الغفل من الجراكسة المقيمين فى مصر ، كأن مصر وأهلها جنوا عليهم جناية مَسّت آباءهم أو تعقبت أدبارهم ! أو كأن أهل مصر سلبوهم شيئاً مما كانوا يملكونه أو منعوهم حقًّا كانوا أهلاً لأن ينالوه ! »

يضاف إلى ذلك كله سخط الخديو توفيق على رياض باشا، بسبب معارضته له فى بعض رغباته : فكان الخديو نفسه ممن يعملون على إثارة ضباط الجيش على رئيس وزارئه . استدنى منه « على بك فهمى » كبير فرقة حرس السراى ، وأخذ يظهر له أنه راغب فى الإحسان عليه ولكن ذلك غير ممكن لمعارضة رياض باشا ... فاعتقد على بك فهمى أن الجناب الخديوى ساخط على رئيس نظاره ، وأن رئيس نظاره عدو منفعته ومنفعة إخوانه . « وعلى المألوف عندنا، لم يخف شىء من ذلك عن بقية الضباط الكبار ، بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما كان يجرى حولهم » .

حدث هذا فى حين كان عثمان رفقى باشا « يشتد فى معاملة الضباط الذين جنى عليهم آباؤهم بولادتهم فى مصر ، ويهيئ المشروعات لإراحة القوة العسكرية منهم » . وأخيراً اقتنع الضباط الفلاحون أن « كل ما يقع من عثمان رفقى فإنما هو من رئيس النظار » ، فأخذوا من ذلك الحين يبحثون عن الوسائل للتخلص من رياض باشا ورفقى باشا معاً .

على أن مما ساعد على إثارة الخواطر فى مصر امتداد نفوذ الأجانب فى إدارة البلاد وماليتها : ظهر للناس أن قانون التصفية سلب البلاد حريتها ، وراعى مصلحة الأجانب دون مصلحة مصر ، إذ أن الأجانب يتقاضون رواتب فاحشة من الخزانة فى إدارة المراقبة العمومية وصندوق الدين والدومين والدائرة السنية وسائر المصالح التى وظفوا فيها ، مع ادعاء فقر الخزانة والبلاد . وكان ذلك مما دعا الناس إلى الاعتقاد ، كما يقول محمد عبده ، « أن حقيقة الظلم واحدة ، وإنما طورها الجديد أرسخ أساساً وأضبط نظاماً ، وأظهر استعداداً للخلود ، فلا محيص عنه . فلو استطال سلطانه وامتد من دائرة إلى أخرى ، آل الأمر إلى وقوع البلاد فى شدة منظمة وضيق محكم الحلقات »

* * *

من ذلك الحين أخذت تهب أعاصير الثورة العرابية . ذلك أن الحكومة لما اعتزمت سنة ١٨٨٠ أن تنقص الجيش وأن تحصر ترقى الضباط فى المتعلمين

بالمدارس الحربية، اضطربت نفوس الضباط المصريين وظنوا أن هذا النظام استحدث لقضاء شهوة رفقى باشا ؛ واجتمعوا للتشاور ، وبينما هم كذلك ، أحال ناظر الجهادية « عبد العال » على الاستيداع وأقام « أحمد عرابى بك » مقامه . « وأحمد عرابى بك كان ينظر الى رؤسائه من الجراكسة نظر العدو الى عدوه . وكان يحتقرهم فى نفسه لاعتقاده أنهم دونه فى المعرفة ، ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التى كانوا يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها . وربما لم يكن مخطئاً فى الكثير منهم . وكان أجرأ إخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجة » . وتقدم الضباط بتقرير ضمنوه شكواهم من تصرفات ناظر الجهادية، وطلبوا تشكيل مجلس عسكرى ينظر فى الشكوى ، كما طلبوا عزل ذلك الناظر . وشاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد فى مصر : « علم الكثير من الأعيان والعلماء والموظفين بإصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة ، وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره ، فهبّ عند ذلك جميع الراغبين فى تغيير الحال . . واتحدت وجهتهم فى الغاية ، وإن اختلفت الدواعى والبواعث : فطلاب مجلس النواب يؤملون فى التغيير أن ينالوا تشكيله ؛ والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين ، والخائفون من أن يؤخذوا بالشُّبه يرجون بالتبديل كشفاً لكربتهم وأمناً على أنفسهم ؛ والواجدون على السلطة الأجنبية يرجون شفاء شىء من وجدهم ؛ والذوات الكرام الطامعون فى رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطمعون فى إرضاء شرههم ،

والأجانب الربويون يتطلعون إلى انقلاب تزيد به الشدة المالية ، حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية ؛ وقنصل فرنسا البارون درنج يسعى فى الانتقام من رياض باشا ، ويحب أن يأتى خلف له يمكنه مجاراته فى مطالبه ؛ والجناب الخديو لا يكره أن يتخلى رياض باشا عن رياسة النظار ، بل تلك أمنية من أمانيه » .

« زاد هذا كله فى جراءة الضباط . وكلما طالت مدة التردد فى حسم المسألة كثرت الاشاعات ، وقويت عزائم المحركين ، وغلب الظن بضعف الحكومة » ... .

وتطورت الحوادث ووقعت « حادثة قصر النيل » فى أول فبراير سنة ١٨٨١ : إذ هجمت « أورطتان » من آلاى الحرس الخديوى على ديوان الجهادية بقصر النيل ، وأخرجوا الضباط الثلاثة (أحمد عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى) الذين كان حبسهم ناظر الجهادية وجردهم من سلاحهم .

كان من أثر ذلك أن زاد نفوذ عرابى ، وأن عزل ناظر الجهادية ، وعين بدله « محمود باشا سامى » ، وأمعن الخديو وحاشيته فى نصب الدسائس والمكايد للعرابيين .

قال محمد عبده : « أما عرابى فلم يكن يخطر بباله أن يطلب إصلاح حكومة أو تغيير رئيسها : فذلك مما كان يكبر على وهمه أن

يتعالى إليه . و إنما الذى أحاط بفكره ، وملك جميع مقاصده، هو الخوف على مركزه، مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الجراكسة والمنافرة من عثمان باشا . فلم يكن له همٌّ سوى الأمن على مقامه والانتقام من ذلك العدو ، والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف العسكرية ، قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ ، لأنه هو و إخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة » .

أراد عرابى بعد هذا ـ كما يقول محمد عبده ـ أن « يستعمل ما بيده من السلطة على الجيش فى المطالبة بإنشاء مجلس نواب يكون له من الحقوق ما لمجالس النيابات فى أوروبا. ثم تخيل أنه إذا أنشئ هذا المجلس عرف أعضاؤه ومستنيبوهم فضل من كان السبب فى تشكيله ، فيهتمون بالمحافظة على حياته وعلى نفوذه بما يستطيعون ؛ بل وثق بأنه يستعمل النواب كما يستعمل ضباط الجند . . ولم يخطر بباله أنه إذا فعل ذلك فقد سقط بالقوة التى يلجأ إليها إلى هاوية العدم : فانه إذا لعب بها فقد فتح لغيره باب الاستهانة بأمرها ، فيسهل عدم المبالاة بسيطرتها » .

وتجمع الجيش فى ساحة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ؛ وتقدم عرابى يطلب من الخديو : « اسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى ، و إبلاغ الجيش إلى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية » .

قال الخديو : « كل هذه الطلبات لاحق لكم فيها . وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى . وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا » .

فأجاب عرابى : « لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا . فوالله الذى لا إله إلا هو أننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم ! » .

وكان قناصل الدول ومستشارو الحكومة الأجانب حاضرين ، فأشاروا على الخديو بالرجوع إلى داخل السراى، خوفا مما عساه يقع بعد هذه المخاطبة مما لا تحمد عقباه . ثم تولى المستشار الانجليزى فى المراقبة الثنائية وقنصلا انجلترا والنمسا أمر التفاهم مع عرابى فى مطالبه ، فقال المستر « مَالِتْ » قنصل انجلترا لعرابى : « إن إسقاط الوزارة من اختصاص الخديو ، وطلب تشكيل مجلس النواب من حقوق الأمة لا الجند ، ولا لزوم لطلب زيادة عدد الجيش لأن البلاد آمنة مطمئنة ، والمالية لا تساعد على ذلك » .

فأجاب عرابى : « اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد إليها إلّا لأنهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم أبناؤهم وإخوانهم : فهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة . واعلم أننا لا نتنازل عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ جميع رغباتنا » .

قال القنصل : « فهمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ طلباتك بالقوة .

وهذه هى الهمجية التى تجر الخطر إلى بلادك وربما تفضى إلى ضياعها » .

فقال عرابى : « كيف يكون ذلك ؟ ومن الذى يعارضنا فى شؤوننا الداخلية ؟ إن من يتصدى لمعارضتنا نقاومه بكل ما فينا من قوة ، ولو أدى ذلك إلى فنائنا عن آخرنا » .

وسأل القنصل : « وأين تلك القوة التى ستناضل بها ؟ » .

فقال عرابى : « أستطيع أن أحشد فى زمن قصير مليونا من العساكر كلهم يسمعون قولى ويلبون اشارتى » .

وسأل القنصل : « وماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما تطلب ؟ » .

فأجاب عرابى : « أقول كلمة أخرى » .

فقال مالِتْ : « وما هى ؟ » .

فأجاب عرابى : « لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط » .

ثم انقطعت المخابرات بين الخديو وعرابى ساعة من الزمان، تقرر فى غضونها إجابة مطالب عرابى، على شرط تنفيذها بالتدريج. واشترط عرابى أن تعزل الوزارة قبل انصراف العساكر ، وأن يعين شريف باشا رئيسا للنظار، ومحمود سامى باشا ناظرا للجهادية ، فقبل شرطه وانصرفت العساكر . وانتهت الثورة دون أن تراق فى سبيلها قطرة دم واحدة .

منذ ذلك التاريخ أصبح عرابى زعيما وطنيا ، وأصبح الجيش هو المعبّر عن الأمانى القومية .

موقف الشيخ : كانت آراء الشيخ محمد عبده إلى يوم مظاهرة عابدين ، مخالفة كل المخالفة لآراء عرابى ، كما قال المستر « برودلى » محامى العرابيين : فلم يكن الشيخ من أنصار الثورة حين شبوبها ، بل كان مؤيدا لرياض باشا. على أن الشيخ المصلح كان يعتقد أن آمال عرابى وجماعته ليست آمالا قومية ، وإنما هى آمال عسكرية صرفة ؛ وكان يرى أن أعمال العرابيين غير مشروعة : لأن تصدى رجال الجيش للحكم فى البلاد ، وفرض إرادتهم على ممثل السلطة الشرعى ، قلب للنظام و إثارة للفوضى وافساد للقانون . وكثيرا ما انتقد الشيخ على العرابيين تعجلهم بطلب الحكومة النيابية قبل إعداد الأمة لها، وطالما أنكر عليهم افتياتهم على حكومتهم وأميرهم ، وحذرهم من عاقبة عملهم وما قد تجره الثورة العسكرية على البلاد من احتلال أجنبى يذهب باستقلالها .

قال الشيخ : « كنت معروفا بمناوأة الفتنة ، واستهجان ذلك الشغب العسكرى ، وتسوئة رأى الطالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه بتلك الوسائل الحمقى . وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحيانا ، فأرى من لدن الباب « عرابى » و بعض رفقائه جالسين معه ، ورؤوسهم بادية من النوافذ . فاذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمى ، أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا . مررت ببيت « طُلْبة » ثالث يوم عيد الفطر ، فسمعت جلبة ، ورأيت بعضاً من صغار الضباط يجولون من جانب إلى

آخر من البيت ، فدخلت للزيارة ، فوجدت « عرابى » وجمعا غفيرا من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية (ل . بيك س) ، وكان من الناقمين على الوزارة لأمر لا يستحق الذكر . فجلست واستمر الحديث فى وجهته ، وكان موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقييد الحكومة بمجلس النواب ، وأن لا سبيل للأمن على الأرواح والأموال إلا بتحويل الحكومة إلى مقيدة دستورية. فأخذت طرفا من البحث ... فأقمنا على الجدال ثلاث ساعات ، كان عرابى والأستاذ من طرف ، والكاتب [أى محمد عبده] من طرف ؛ هما يقولان : « إن الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شورية » .

وأنا أقول : « علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات؛ ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة . وليس من اللائق أن نفاجئ البلاد بأمر قبل أن تستعد له ؛ فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد : يفسد المال ويفضى إلى الهلكة » .

وختم محمد عبده هذه المناقشة بقوله : « إن الأمة لو كانت مستعدة لأن تشارك الحكومة فى إدارة شؤونها ، لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية

معنى . فما يطالب به رؤساء الجند غير مشروع ، لأنه لو تحقق ونالت البلاد مجلس شورى لما كان ذلك تصويرا لاستعداد الأمة ولا تحقيقا لمطالبها ، فلا يلبث أن ينهدم ويزول . وأخشى أن يجر هذا الشغب على البلاد احتلالا أجنبيا يستدعى تسجيل اللعنة على مسببيه إلى يوم القيامة » .

فتبسم « عرابى » ابتسام الساخط وقال : «أبذل جهدى فى أن لا أكون مورد هذه اللعنة . وليس الجند هو الطالب لتشكيل مجلس النواب ، وإنما هو مؤيد لطلب الأعيان ووجوه البلاد » .

فسأله محمد عبده : « وعلى من تعتمد ؟ وممن أخذت الميثاق على ذلك ؟ »

فهمس إليه بصوت خافت : « إن سلطان باشا قد عاهدنى على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا » .

* * *

ثم وقع عصيان عابدين ، وعزلت الوزارة الرياضية ، وأجيبت طلبات الوطنيين فى تمثيل الأمة تمثيلا نيابيا .

وحدث الخلاف بين شريف باشا والعرابيين بصدد الميزانية وما يتصل بها من مواد الدستور ، فكان محمد عبده ينصح للعرابيين بالتريث والاعتدال . ولما تطورت الحوادث، وتبين الناس أن من نوايا الانجليز القضاء على الحركة الوطنية ، تحت ستار الثورة ـ ومن أجل ذلك سعوا من جهة إلى شل سلطة

البرلمان، بحجة أن المراقبة المالية واقعة على جميع فروع الإدارة المصرية ، فلا يجوز تعرض البرلمان لها ؛ وعملوا من جهة أخرى على التفريق بين الخديو والأمة،والتوسل بحزب السراى (المعادى للعناصر الوطنية) إلى خلق الدسائس والمؤامرات ـ حينئذ تحول مقام عرابى من قائد جيش إلى قائد مصر ، وحينئذ أصبح محمد عبده والبلاد المصرية قاطبة من أتباع أحمد عرابى،ورأى محمدعبده، كما يرى كل وطنى صادق، أن واجبه يقتضيه أن يكون مع الأمة على الانجليز وعلى الخديو ...

ومنذ ذلك الحين أخذ محمد عبده يشد أزر العرابيين، حتى كان كما قال لورد كرومر « روحا مدبرة للحركة » ،وأصبح العرابيون يلجأون إلى الشيخ فى كثير من أمورهم ، لايبرمون أمرا دون استشارته . فكان هو ـ بالاشتراك مع البارودى ـ المحرر للبيان الذى نشره « الحزب الوطنى » عن غايات الحركة الوطنية ومبادئها . ولما اشتد الخلاف بين الخديو والوزارة البارودية ، وحضر الأسطولان الانجليزى والفرنسى إلى مياه الاسكندرية فى مايو سنة ١٨٨٢ ، وردّت الوزارة على مذكرة انجلترا وفرنسا برفض مطالبهما ، وكان الوزراء وكبار الضباط مصرّين على هذا الرفض ولو أدى الأمر إلى القتال ، « اجتمع البارودى وكبار الضباط بقشلاق عابدين وأقسموا جميعا على المصحف أنه إذا حصلت حرب يكونون يدا واحدة فى الدفاع عن البلاد » : فكان الشيخ محمد عبده هو الواضع لصيغة اليمين والمتولى تحليف كبار الضباط عليها .

فلما تحرش الانجليز بمصر، وضربت الاسكندرية بقنابل الأسطول الانجليزى، فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢، بذل الشيخ محمد عبده جهوداً كثيرة خالصة لتعضيد مصلحة البلاد بالقلم واللسان والعمل: فدعا إلى التطوع فى صفوف الجيش المدافع عن مصر وإمداده بالاعانات والتبرعات؛ وكتب بهذا الصدد فى « الوقائع المصرية » مقالات تفيض بلاغة وحماسة. والخلاصة أن موقف الشيخ فى الثورة العرابية كان، كما يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك، «موقف الوطنى الذى يثور لكرامة البلاد واستقلالها، فدافع عنها بكل مالديه من حول وقوة وإخلاص».

***

خاتمة المأساة: كانت حجة الانجليز فى ضرب الاسكندرية أن المصريين يقومون بتحصينات فى المرفأ ويقومون باستعدادات حربية فى البلاد. وهى حجة واهية من غيرشك، اختلقها القوم للتحرش بمصر واتخذوها ذريعة للعدوان عليها: فلم يكن هناك تحصينات جدية يخشى بأسها، وإنما هو عمل مشروع تقوم به كل حكومة مستقلة يهددها أسطول أجنبى. على أنه منذ جاءت أوامر السلطان بالكف عن الترميمات «لم يطرأ أى تغيير على أية بطارية من جهة الميناء أو على البحر، ولم يحصل أى ترميم فى الحصون، ولم ينصب فيها أى مدفع جديد». وهذا ما شهد به اميرال الأسطول الفرنسى، كما شهد به « نينيه » رئيس الجالية السويسرية، وكان شاهد عيان لحوادث الثورة

العرابية . واعترض « السير ولفرد لوسن » أحد النواب الأحرار فى مجلس العموم البريطانى على ضرب الاسكندرية ووصفه بأنه « فظاعة دولية ، وعمل يجمع بين الجبن والقسوة والاجرام » . ولكن الوزارة الانجليزية مضت فى انفاذ خطتها غير مبالية بما قطعته على نفسها من عهود ! واخفق مؤتمر الأستانة اخفاقا ذريعا : فلم « يعمل عملا ما فى صون حقوق مصر ورَدّ عادية الانجليز عنها » ، بل أصبح « مضرب الأمثال فى المهازل السياسية الخالية من روح النزاهة والصراحة والاخلاص » ، كما يقول عبدالرحمن الرافعى بك فى كتابه « الثورة العرابية » .

واحتل الانجليز الاسكندرية ، ونزل الجيش الانجليزى أرض مصر محاربا لأهلها ، وانتصر الانجليز بخلق « الأسباب والذرائع الباطلة لاحتلال البلاد . على أن مصر كانت تستطيع أن تحبط هذه المؤامرات وتنجو من شراكها ، أو على الأقل تخفف من عواقبها ، لو أنها عرفت كيف تواجهها » . والواقع كما قال ذلك المؤرخ المنصف أن « أول ما استعانت به السياسة الانجليزية فى تدابيرها هو وقوع الانقسام بين الخديو والعرابيين : فإن هذا الانقسام قد فتح الثغرات لتدخل الانجليز ، كما أنه أضعف قوة المقاومة فى البلاد ، إذ انقسمت إلى معسكرين كلاهما يبغى الكيد للآخر ويضمر له العداء فى وقت كان الانجليز يعدون فيه العدة للقضاء على المعسكرين معا » .

والواقع أيضا أن العرابيين والخديو كليهما لم يقدر مضار الانقسام ولم يتبيَّن عواقبه ؛ « وكلاهما يتحمل تبعته ؛ ففى الحق أن تبعاتهما من هذه الناحية تكاد تكون متعادلة متكافئة . ولكن من الحق أيضا أن نقول إن الموقف قلم تغير منذ ضرب الاسكندرية : إذ انحاز الخديو إلى الجيش الانجليزى وساعده على التغلغل فى البلاد ؛ فهو المسئول عن هذا الموقف . على أن الذى يؤخذ على العرابيين فى مدة الحرب أنهم لم يبذلوا من المدافعة والاستبسال فيها ما يثير فى الأمة روح الإقدام والتضحية » .

وحدث ما كان يخشاه محمد عبده وغيره : فإن عرابى « ذلك الفلاح الساذج والوطنى الغيور » لم يكن الزعيم الذى يخشى بأسه ، أو الرجل الذى يصلح لقيادة الحرب . ولقد أظهرت الأيام صحة ما كان يعتقده عارفوه — ومنهم محمد عبده — من أنه كان رجلا خياليا ، مترددا ، قليل التصميم والعمل ، كثيرا ما ينخدع للناس ، ويبنى أحكامه على أوهام ، فلم يكن يليق مطلقا للقيام بتلك المهمة التى ألقتها على كاهله المقادير .

انخدع عرابى أولا بقنصل فرنسا العام ، ثم بتأكيدات دولسبس ، وانخدع بجواسيس الانجليز ، وكان يطلع بعضهم على أسراره العسكرية ، ولا يتصور وقوع الخيانة منهم « لأنهم مسلمون » ! وقام فى أحرج ساعة فى الحرب فقضى وقته فى الصلاة والأدعية والأذكار ، ونسى واجب الجندى

الصحيح فى أخذ الأهبة للمعركة والاستعداد لمنازلة الأعداء ! .

* * *

هكذا وقعت الهزيمة فى صفوف العرابيين ، وانتهت الثورة بما كان يخشاه محمد عبده من احتلال البلاد وضياع استقلالها .

وفى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ عاد الخديو من الاسكندرية إلى القاهرة ، تسنده قوة الجيش الانجليزى ، كما عاد الملك لويس الثامن عشر إلى باريس حين دخلها الحلفاء سنة ١٨١٥ .

وساد مصر حينئذ جو من الركود الروحى والانحلال الخلقى ، وبدت مظاهر غير وطنية ، وتصرفات غير مشرفة ، صدرت من بعض ذوى الشخصيات البارزة الموالين للخديو والانجليز . وكثرت السعايات والوشايات ، فأخذ الواشون يتهمون خصومهم بالتمرد وعصيان الخديو .

وقبض على زعماء العرابيين وغيرهم من الضباط والعلماء والأعيان ، وغصت السجون بالمعتقلين رهن التحقيق والمحاكمة . قبض على « الزعماء السبعة » وعلى كثيرين غيرهم ممن عرف لهم أثر فى الثورة العرابية ، ومن هؤلاء الشيخ محمد عبده ، واتهموه بأنه أفتى بوجوب قتل الخديو لخروجه على اجماع الأمة .

وعُيّن للدفاع عن العرابيين المحامى الانجليزى « مستر برودلى » . وبقى

محمد عبده فى السجن رهن التحقيق ثلاثة أشهر، فعانى تجربة مُرَّة قاسية : حزّ فى نفسه احتلال الانجليز لبلاده، وآلمه تقوّض جهوده وذهاب آماله فى إصلاحها، وزاد من مرارة ما كان يعانيه انقلاب بعض الأصدقاء عليه أثناء المحاكمة، ومحاولتهم الوشاية به والسعاية فيه . فكتب من السجن إلى صديق له يصف حاله النفسية وقتذاك : « آه ما أطيب هذا القلب الذى يملى هذه الأحرف ! ما أشد حفظه للولاء ! ما أغيره على حقوق الأولياء ! ما أثبته على الوفاء ! ما أرقّه على الضعفاء ! ما أبعد هذا القلب من الإيذاء ولو للأعداء ، ما أشده رعاية للود ومحافظة على العهد . ما أعظم حذره من كل ما توبخ عليه الذمم الطاهرة ! ما أقواه إقداماً على العمل الحق والقول الحق لا يطلب عليه جزاء . « هذا القلب الذى يؤلمونه بأكاذيبهم هو الذى سر قلوبهم بالترقية وملأها فرحا بالتقدم .. ودافع عنهم أزمانا !. أفنشرح الصدور وهم يحرجون ، ونشفى القلوب وهم يؤلمون ! هل أتأسف إن كنت سباقا إلى الخيرات ؟ هل أتأسف إنْ كنتُ مقداما فى المكرمات ؟ هل أتأسف إن كنت شجاعا فى الدفاع عن ذوى مودتى ؟ هل أتأسف إنْ كنت أبيا أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولى صلتى ؟ هل أستحق العقاب على حبى لبلادى والناس لها كارهون ؟

« كلا والله لن يكون ذلك . ولم أزدد فى سبيل الفضيلة إلا بصيرة ، ولم أزدد فى المحافظة عليها إلا ثباتا . ولئن عشت لأصنعنّ المعروف ، ولأغيثنّ

الملهوف ، ولأنقذنّ الهاوى فى حفرة الغدر ، ولآخذنّ بيد المتضرع من ضغط الظلم ، ولأتجاوزنّ عن السيئات ، ولأتناسينّ جميع المضرات ، ولأبينّ لقومى أنهم كانوا فى ظلمات يعمهون .. »

هذا هو محمد عبده . فى وسط ذلك الخذلان العام الذى يضعف العزائم ، وفى ذلك الجو الفاسد الذى تحتبس فيه الأنفاس ، ظل الرجل مخلصاً لواجبه ، وفياً لوطنه ، لا تزيده الخطوب إلا ثباتاً على المبـــدأ ، ولا الغدر إلا ولاءً للصـــديق .

نعم هـــذا هو محمد عبده . وسيظل أبلغ ما قيل فى وصفه ما قاله هو عن نفسه : « ما أطيب هذا القلب » !

الجهاد فى المنفى

الشيخ فى باريس : انتهت محاكمة العرابيين قبل ختام عام ١٨٨٢ : فحكم على عرابى ورفاقه المعروفين بالنفى مدى الحياة فى سيلان . وحكم على محمد عبده بالنفى ثلاث سنين فى سوريا .

لجأ الشيخ الى بيروت ومعه طائفة من المصريين كالشيخ « أمين أبى يوسف » ، و « إبراهيم بك اللقانى » و « أحمد بك عبد الغفار » ، و « محمد بك الزمر » . فأكرم السوريون مثواهم . وقد كتب محمد عبده فى ذلك الى أحد أصدقائه يقول : « وبعد فأنا اليوم فى بيروت فى فضل من الله أشكره ، وجميل إحسان أذكره . ومقامى عند جميعهم محفوظ ، ومكانى بعين التوقر ملحوظ ، غير أنه لا يسوى بقومى قوم ، ولا كيوم وطنى يوم »

و بعد أن أقام الشيخ فى سوريا نحو عام (١٨٧٣) ، وافاه كتاب من السيد جمال الدين الأفغانى يدعوه فيه إلى لقائه بفرنسا .

فخرج الشيخ من بيروت فى أوائل عام ١٨٨٤ ؛ وتوجه الى باريس ، واتصل بأستاذه الذى كان قد عاد من منفاه بالهند واستقر به المقام حيناً فى العاصمة الفرنسية .

* * *

كان أول عمل للشيخ محمد عبده فى باريس ، هو أنه اشتغل مع السيد جمال الدين بتأليف « جمعية العروة الوثقى » ، وكان غرض تلك الجمعية جمع شتات المسلمين ، ومحو ما بينهم من شقاق ، و إيقاظهم من رقادهم . وقد وضع محمد عبده صيغة ذلك العهد الجميل الذى ارتبط به أعضاء الجمعية ، وهذا نصه :

« أُقسم بالله العالم بالكلى والجزئى والجلى والخفى ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لأحكمنّ بكتاب الله فى أعمالى وأخلاقى بلا تأويل ولا تضليل . . . ولأجيبنّ داعيه فيما دعا إليه ، ولا أتقاعد عن تلبيته فى أمر ولا فى نهى ، ولأدعونّ لنصرته ، ولأقومنّ بها ما دمت حيًّا ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا .

أُقسم بالله مالك روحى ومالى ، القابض على ناصيتى ، المصرف لإحساسى ووجدانى ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لأبذلنّ ما فى وسعى لإحياء

الإخوة الإسلامية ، ولأنزلنها منزلة الأبوة والبنوة الصحيحتين ، ولأعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى ، وانتظم فى عقد من عقودها ، ولأراعينّها فى غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الإسلام ، فإنى أبذل جهدى فى إبطال عمله المضر بالدين ، وآخذ على نفسى فى أثره مثل ما أخذ عليها فى المدافعة عن شخصى .

أُقسم بهيبة الله وجبروته أن لا أقدم إلا ما قدمه الدين ، ولا أُؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا أسعى قدما واحدة أتوهم فيها ضررا يعود على الدين جزئيا كان أو كليا ، وألا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين فى شىء يتفق رأى أكثرهم عليه . وعلىّ عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الإسلام والمسلمين ، عقلا وقدرة ، بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه من العارفين . لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسعه إمكانى الوجودى . وأسأل الله نجاح العمل ، وتقريب الأمل ، وتأييد القائم بأمره ، والناشر لواء دينه . آمين ؟

النائب

محمد عبده

ثم شرع السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده يعدّان العدة لإنشاء جريدة « العروة الوثقى » المشهورة « للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموما والمسلمين خصوصاً ، وتنبيه بعض الغافلين منهم لما فيه خيرهم » .

* * *

وقد نستطيع اليوم بعد انقضاء أكثر من نصف قرن ، و بفضل ما كتبه المستر « ولفرد بلنْت » صديق الشيخ محمد عبده ، أن نلم بطرف من نوع الحياة التى كان يحياها الشيخ فى ذلك الحين مدافعاً عن قضية بلاده فى فرنسا ثم فى انجلترا .

* * *

والمستر « ولفرد بلنت » كاتب وشاعر انجليزى تعرف بالشيخ محمدعبده فى مصر قبيل الثورة العرابية ، ثم التقى به بعد ذلك مرات فى أوروبا وفى مصر ، وأصبح الرجلان صديقين من أخلص الأصدقاء . ومستر « بلنْت » صاحب كتاب « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » ، الذى ألفه اعتماداً على مذكرات الشيخ محمد عبده وآرائه فى الحركة القومية . وقد دافع « بلنْت » عن استقلال مصر بالقلم واللسان زماناً أمام الرأى العام الانجليزى . وكان له فى ذلك مواقف مشهورة أبدى فيها ذلك الصديق شجاعة أخلاقية باهرة ، وظل ذلك الكاتب يناصر الشعب المصرى حتى كانت سنة ١٩١١ ، إذ أنشأ لهذه الغاية جريدة باللغة الانجليزية سماها « مصر » . وفى سنة ١٩١٨ نشر كتاباً انجليزياً بعنوان « يومياتى » تكلم فيه عن محمد عبده وعن كثير من الشؤون المصرية .

* * *

وصف المستر « بلنْت » فى كتابه « غوردون فى السودان » ناحية من حياة الشيخ محمد عبده فى أولى زياراته لباريس . ومنه نعلم أن الشيخ الأزهرى لم يكد يمضى على إقامته فى العاصمة الفرنسية شهران ، حتى أصبح — على حد تعبير « بلنْت » — أوربياً متفرنسا . فقد لاحظ الكاتب الانجليزى تغيراً فى زى الشيخ ومظهره : كان الشيخ فى مصر يحلق رأسه حلقا تاما على عادة المشايخ ، لكنه فى باريس ترك تلك العادة ، فاستطال شعر رأسه ولحيته ، وقارب مظهره فى هذا مظهر « أهل الفن » من الأوربيين . وقد يكون ذلك أثراً من آثار إقامته فى باريس ومتابعته لعرف القوم فى حياتهم الاجتماعية ، وهذا العرف يقضى ، كما هو معلوم ، أن يكون الرجال حاسرى الرءوس فى اجتماعاتهم ومقابلاتهم ، وطول الشعر من مكملات حسن البزة والرونق .

وكان الشيخ يرتدى جبة جميلة تكسوه مهابة . ولعلنا كنا ننتظر أن يكمل الشيخ زيه فيلبس العمامة . ولكن مستر « بلنت » يذكر أن الشيخ كان يرتدى « الطربوش » بدلا من « العمامة » ! ولسنا ندرى السر فى هذا . غير أن من المؤكد أن زى محمد عبده ، فى ذلك الحين ، كان كزى أستاذه الافغانى لا يخلو من جاذبية وانسجام ، ولا شك أنه بما فيه من ابتكار لطيف كان يسترعى الأنظار فى باريس .

ويصف المستر بلنت فى كتابه الذى أشرنا إليه زيارة قام بها لصديقيه جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى أواخر مارس سنة ١٨٨٤، بادارة جريدة

« العروة الوثقى » ؛ وكانت عبارة عن حجرة ضيقة فى سطح منزل من المنازل القائمة بشارع « سيز » ، وهو شارع قصير على مقربة من ميدان « المادلين » بباريس . غير أن تلك الحجرة الضيقة كانت ملتقى شخصيات كثيرة شرقية وغربية . وفيها كان الشيخ محمد عبده يشتغل بتحرير الجريدة ويستقبل زائريه .

* * *

وكان يعاون الأستاذ فى تحرير « العروة » بباريس رجل فارسى اسمه « مرزا محمد باقر » ، كان يترجم للجريدة ما يهم من الصحف الانجليزية . ومرزا باقر هذا كان ذا حظ كبير من الذكاء وسرعة الحفظ وقوة الذاكرة . كان حافظا للكتاب المقدس ، مستحضرا لآيات القرآن ، ملما بلغات كثيرة . وكان مسلما فتنصر ، وصار داعية للنصرانية مع جماعة من المبشرين ؛ وكان قد عرفه السيد الأفغانى من قبل فى ثغر « بوشير » فى الخليج الفارسى . وجادله مرة فبدرت منه كلمة طعن فى النبى . فأمر السيد مَن معه من الأفغانيين بضربه ، فضربوه وطردوه . فلما عاد السيد إلى باريس ، واشتغل مع الشيخ محمد عبده باصدار « العروة الوثقى » ، أرسل إليهما « مرزا باقر » بطاقة الاستئذان . فدخل وذكر ما كان من ارتداده عن دينه ، ثم عودته إليه ، وتكفيره عن ذنبه بالدعاية للاسلام . وعرض على السيد استعداده لخدمته فى إدارة « العروة » . فاشتغل فيها مترجما عن اللغة الانجليزية التى كان يتقنها نثرا ونظما .

ولما ذهب الشيخ محمد عبده إلى لندن لمحادثة رجال السياسة الانجليزية فى المسألة المصرية ، سافر معه « مرزا باقرا » ليكون مترجما بينه و بينهم . فكان ينتهز فرصة هذه الأحاديث لدعوة الانجليز إلى الإسلام ، فيقول له الشيخ محمد عبده : « دع هذا الآن إلى أن نفرغ مما نحن فيه ! » .

وقد روى السيد رشيد رضا أن بعض كبراء الهند مدح ملكة الانجليز بقصيدة بليغة بالأوردية أو الفارسية . فلما ترجمت لها القصيدة رأت أن تترجم بالانجليزية نظما ، فترجمها « مرزا باقر » . فأعجبت الملكة بها ، وأمرت للمترجم بخمسمائة جنيه جائزة . فما كان من « مرزا باقر » إلا أن رد المبلغ ، وقال إن كل ما يطلب مكافأة على عمله هو أن تعتنق الملكة الإسلام !

* * *

وكان ممن يترددون على ادارة « العروة الوثقى » يهودى مصرى يدعى « يعقوب صنوع » ، واسمه المستعار « أبو نضارة » . وكان « أبو نضارة » من الشخصيات الجذابة حقا ، قد قام بنصيب لا يستهان به فى تاريخ القضية المصرية . كان أول أمره يمثل فى مصر قطعا مسرحية فيها شىء من الثورة على القديم ، و إن كانت فى قالب هزلى . وكان الخديو اسماعيل يعجب بها ، ويلقب صاحبها « بموليير مصر » . و إلى جانب هذا كان «صنوع» يصدر فى مصر ، عام ١٨٧٧ ، جريدة هزلية أسبوعية اسمها « أبو نضارة » كانت تنشر باللغة

العامية المصرية ، وقد لقيت بين طبقات الشعب اقبالا . لكن الخديو اسماعيل ضاق بها ذرعا ، لما كانت تحوى من نقد جرىء وتهكم لاذع ، فأمر بنفى صاحبها من مصر . فلجأ « أبو نضارة » إلى فرنسا ، وثابر على اصدار جريدته بأسماء مختلفة ، متابعا حملاته على الخديو ورجاله ، وعلى الحكومة وقناصل الدول الأوروبية ، إلى أن كانت سنة ١٨٨٢ ، فأخذ « أبو نضارة » يندد بالاحتلال الانجليزى ، معدداً سوءاته ، مناديا بحق مصر فى الحرية والاستقلال . ويعقوب صنوع بخطبه ومقالاته قد خدم مصر زهاء ٣٤ عاما ؛ ولاشك أن الصحافة المصرية مدينة لرجل مثله نشط لرفع لوائها فى عصور الاستبداد .

***

وقد كان أهم مايشغل أفكار المصريين والشرقيين بأوروبا فى ذلك الحين هو تتبع أخبار مصر وأخبار المعارك الحربية التى كانت ناشبة بين المهدى وغردون فى السودان . أما آراء محمد عبده فى ذلك الصدد فكان يعلنها بصراحته المعهودة فى أحاديثه ، وعلى صفحات « العروة الوثقى » . كان الشيخ ناقما على الاحتلال الانجليزى لمصر ، ناقما على الخديو توفيق الذى يستند الانجليز عليه فى احتلالهم « ويتخذونه آلة لتخريب بلاده وهدم ملكه ، وما يكون من شر ينسبونه إليه ، وما عساه يوجد من خير يردونه إلى أنفسهم ؛ وفيما بين ذلك يبغّضون إليه الولاية الاسلامية ويحبّبون إليه اغفال الأصول

الدينية » . وكان الشيخ شديد السخط على العناصر التركية صاحبة النفوذ والسيطرة على المرافق الحيوية فى بلاده ؛ وكثيرا ما كان يتحدث عن استبداد الحكام فى سوريا، وهو أمر خبره بنفسه أثناء اقامته بها . ولم يكن جمال الدين ولا محمد عبده يؤملان من جانب « السلطان عبد الحميد » ولا من جانب حكومته خيراً يعود على مصر ولا على العالم الاسلامى .

***

وفيما ذكرنا ما قد يعيننا على أن ندرك مبلغ التضحية التى أقدم عليها الشيخ محمد عبده حين اعتزم مع أستاذه الأفغانى إصدار جريدة « العروة الوثقى » . وقد كانت مهمة تلك الجريدة من الناحية السياسية تنحصر فى أمرين: أحدهما تخليص مصر من الاحتلال الانجليزى . والثانى إيقاظ الشعوب الشرقية وإشعارها خطر القوة الأوروبية . ولذلك كانت خطة العروة منذ البداية مهاجمة السياسة الانجليزية فى الشرق عامة وفى مصر خاصة وإثارة خواطر أهل مصر والهند حتى لا يستسلموا لنفوذ الدولة الغاصبة .

وصدر العدد الأول من « العرورة » بتاريخ ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ ، فانزعجت لها الحكومة البريطانية : إذ كانت شخصية الأفغانى ونزعاته معروفة لديها . وما كان أسرع ما سعى الانجليز فى أن يمنعوا دخول الجريدة إلى الهند ومصر والسودان ! وكان من آثار ذلك أن انعقد مجلس النظار المصرى

وأصدر قرارا يقضى بمنع « العروة الوثقى » من دخول مصر ، ووضع غرامة قدرها خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين جنيها على كل من توجد عنده نسخة منها .

كان السيد جمال الدين مديرا للجريدة والشيخ محمد عبده المحرر لها . وظل الأستاذ وصديقه دائبين لا يفتران عن التحايل فى إيصالها إلى المصريين وغيرهم من الشرقيين . ولكن التدابير الشديدة التى اتخذتها الحكومة الانجليزية بازائها كان من شأنها عرقلة أعمالها ، فلم تستطع الجريدة أن تعيش أكثر من ثمانية أشهر إذ صدر آخر اعدادها بتاريخ ١٨ أكتوبر سنة ١٨٨٤

على أن «العروة الوثقى» ـ على الرغم من حياتها القصيرة ـ قداستطاعت أن تخلف فى أبناء الشرق آثارا بعيدة المدى : حببت إليهم طلب الحرية ، وبثت فيهم روح الوطنية ، وأحيت عندهم الشعور بمقاومة الغاصبين، وزكت فى نفوسهم أخلاق الرجال .

ولكى يكون لدى القارئ فكرة عما كانت تعالجه الجريدة من موضوعات وطنية أخلاقية نقدم إليه هنا مقتبسات مما نشر فى بعض أعدادها . قالت فى الحث على الدفاع عن الوطن : « المدافعة عن الوطن أمر طبيعى وفرض معاشى يكاتف فى دعوة الطبيعة إليه الميل إلى الطعام والشراب ، فليس يمدح القائمون به ، ولا يثنى عليهم فى أدائه » . وقالت فى الخيانة :

« لسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمن بخس أو غير بخس ـ وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس ـ بل خائن الوطن من يكون سبباً فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن ، بل من يدع قدماً لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها . ذلك هو الخائن فى أى لباس ظهر وعلى أى وجه انقلب . القادر على فكر يبديه ، وتدبير يأتيه لتعطيل حركات الأعداء ثم يقصر فيه فهو الخائن . » وقالت أيضاً : « لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة إذا تغلبت عليها أمة أشد منها قوة وأكثر سوادا وقهرتها بقوة السلاح ، وإنما العار الذى لا يمحوه كر الدهر . . . هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها أو طائفة منهم لتمكين أيدى العدو من نواصيهم إما غفلةً عن شئونهم ، أو رغبة فى نفع وقتى ، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم » .

وقالت تحت عنوان « الحزم والعزم » : إن أبناء الأمم الغربية إذا عمدوا الى قصد لا يفترون فى طلبه . وعلو الهمم فيهم يجعل لديهم كل صعب سهلا ، وكل بعيد قريبا : يقتحمون المخاطر لاكتساب الشرف . ولقد بلغوا من محبة المجد حدا لا يرونه غذاء لأرواحهم فقط ، بل عدُّوه من مادة النماء لأبدانهم ... لهذا ترى الرجل منهم يجوب فيافى افريقية ، ويتسنم جبال سيبيريا ، ويخالط قبائل وشعوبا لا يعرف لهم لغة ، ولا يألف لهم عادة ولا أخلاقاً ، ويتكبد

مشاق الحر والبرد والجوع والعطش ، وينازل الموت مع من يخالطه من تلك القبائل البعيدة عنه فى جميع أوصافهم ، وهو فى كل وقت يقع بين أنياب المنية منهم ثم يخلص بما يقتدر عليه من الوسائل ، كل هذا يحتمله طلبا لشرف يكسبه لذاته ، أو ابتغاء مجد يحصله لأمته .

« ومن هؤلاء الرجال بل من أحزمهم وأجلّهم صديقنا الهمام البطل الشهير المستر « أوكلى » أحد نواب البرلمان الايرلندى . . . ومنهم رجال من عظماء الفرنساويين الأحرار ذهبوا الى مثل مقصده وتوسلوا بمثل وسائله .. ورجاؤنا أن يكون فى هؤلاء أسوة للشرقيين : فلا تقعدهم الأوهام الباطلة ، ولا تنيمهم الأحلام الكاذبة . ولقد كان لهم فى أسلافهم أسوة حسنة . ولكن مع الأسف نحتاج فى تذكيرهم بما لهم من سابق المجد إلى ذكر أحوال الحاضرين من غيرهم ، ولله الأمر من قبل ومن بعد » .

* * *

الشيخ فى لندره : رأت جمعية « العروة الوثقى » ، إجابة لدعوة المستر ولفرد بلنْت فيما نظن ، أن يذهب الشيخ محمد عبده الى لندن لمحادثة رجال السياسة الانجليزية فى الشؤون الشرقية ، ولاستطلاع آرائهم ونواياهم بشأن القضية المصرية ـ و بتعبير السيد جمال الدين الأفغانى ـ « ليستكشف مناصب الفخاخ السياسية ، وليسبر غور المطامع الانجليزية » .

غادر محمد عبده باريس ، ووصل إلى لندن لأول مرة فى النصف الأخير

من شهر يوليو سنة ١٨٨٤ ، فنزل فى العاصمة الإنجليزية ضيفا على صديقه المستر « بلنْتْ » بشارع چيمس .

وفى يوم ٢٢ يوليو توجه محمد عبده ، بصحبة المستر بلنت ، إلى مجلس النواب الإنجليزى ؛ وكان الشيخ معمما يرتدى جبة زرقاء أنيقة ، فاسترعى زيه الأنظار ، وتسابق النواب والزوار فى الردهة لرؤية ذلك القادم الغريب . وجاء أحد أعضاء البرلمان ، فدعا الشيخ المصرى وصديقه مستر بلنت إلى مأدبة كبيرة تقام لجماعة من الهنود وغيرهم من الشرقيين . وأسرع أحد المصورين بالفتوغرافيا ، وطلب فى إلحاح الى محمد عبده أن يأذن له بأخذ صورة له ، وهو واقف فى ردهة مجلس النواب .

وتولى مستر بلنت تقديم محمد عبده إلى كثير من أعضاء البرلمان باسم « أحد قادة الثورة المصرية » . وكان من النواب الذين لقيهم الشيخ ، فتركوا فى نفسه أثرا طيبا ، نائب اسمه « پارنل » ، دعا الشيخ لزيارته ، وطلب إيقافه على شىء من المعلومات . وقال « پارنل » : «لقد أرسلنا واحدا منا إلى المهدى ، وهو الآن بمصر ويخشى أن يُحال دون وصوله إلى السودان » . فأجاب مستر بلنت : «السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده هما اللذان أعطيا هذا المبعوث الخطابات التى تمكنه من الذهاب إلى المهدى » .

وفى ٢٣ يوليو ذهب الشيخ محمد عبده بصحبة مستر بلنت «ومرزا باقر»

الفارسى ، لمقابلة « السير ولفرد لوسن » أحد أعضاء البرلمان . لكن هذه المقابلة لم تأت ، فيما يظهر ، بما كان يرجى منها : فقد اندفع « لوسن » يسأل الشيخ أسئلة سريعة مقتضبة فى الشؤون الشرقية ، فحال ذلك دون أن يدلى الشيخ إليه بالبيان الكافى ؛ لكن محمد عبده لم يفته آخر الأمر أن يصرح للنائب الانجليزى فى قوة أن أول خطوة لوضع أساس للسلام فى مصر هو جلاء العساكر الانجليزية .

وتحدث محمد عبده بمثل هذا المعنى مع النائب « لابوشير » ، الذى حاول اقناع الشيخ أن خير الوسائل لاخراج الانجليز من مصر هو أن يرفض المصريون دفع الضرائب ما دام جيش الاحتلال فى البلاد . فأجاب الشيخ بأن مستر «غلادستون» طالما تكلم عن جلاء الجنود الانجليز ؛ ولكنه بدلا من ذلك أخذ فى زيادة عددهم ، وملأ البلاد بالموظفين الانجليز يحتلون جميع مرافق الحكومة ؛ ثم قال : «إن المصريين لو امتنعوا عن دفع الضرائب ـ كما يريد لابوشير ـ لاتخذ الانجليز من ذلك حجة لضم البلاد المصرية إلى أراضى الامبراطورية البريطانية » .

وأرسلت جريدة « پول مول غازيت » أحد مندوبيها ممن لهم الملم باللغة العربية ، فلقى الشيخ ، وظفر منه بحديث نشرته الجريدة بعددها الصادر بتاريخ ١٧ أغسطس سنة ١٨٨٤ . قال المحرر : «نعتقد أن الشيخ محمد عبده

أول مصرى أصيل يزور هذه البلاد ... فقد عرفنا من قبل أشخاصا كثيرين ، من أتراك وجراكسه وسوريين وأرمن ويهود ، وكلهم يدعون أنهم مصريون. لكنا لم نعرف مصريا عريقا فى مصريته كالشيخ محمد عبده ، الذى قدم لزيارة لندن اليوم : فهو يقينا فلاح ، يلبس حبة زرقاء ، وعمامة بيضاء ، ولا يتكلم الفرنسية ، ولا الانجليزية ، بل ولا التركية ، إنما يتكلم العربية لغة قومه ، وليس عليه أدنى مسحة من التقاليد الأوروبية . وهو متوسط الطول ، أسمر اللون ، ذو لحية سوداء ، حاد البصر ، ذو وقار ومظهر مهيب ، له ابتسامة جذّابة ، وإذا استشاره محدثه تكلم كلام الفصيح المتواضع ، قوى الحجة ، وثاب الذكاء ، مشرق الطلعة ، وضاح الجبين .

« وكان والده ، ولم يزل ، فلاحا من فلاحى الدلتا ، يشتغل بزراعة أربعين فدانا من الأرض فى محلة نصر . وهو لا يزعم لنفسه من الحسب وشرف المولد أكثر مما تسمح له به أجيال عديدة من أسلافه الفلاحين ، ملكوا هذه الأرض بعينها .

ولكن الشيخ محمد عبده يزيد بكثير على الفلاح البسيط : إذ تعلم فى الأزهر ، وهو الآن أحد علمائه الممتازين . بل أجدر بنا أن نقول إنه كان كذلك ، لأنه أصبح الآن ، كسائر أعضاء الحزب الدينى الحرّ فى تلك الجامعة ، مغضوبا عليه من أولى الأمر ، وهو الآن منفى من الأزهر ومن البلاد المصرية كلها : لأنه ، على الرغم من اعتدال طبعه ، انضم إلى عرابى ، ووالى الحركة

القومية قبل الحرب وأصبح من قادتها البارزين ، وأصابه ما أصاب أنصارها عند فشلها فى موقعة التل الكبير . حكموا عليه بالنفى من بلاده ثلاث سنين ، لأنهم رأوا فيه رجلا خطرا ، إذ كان معروفا بالنزوع إلى الحرية والفصاحة والتأثير على الجماهير . وتلك أول مرة يزور فيها الشيخ أوروبا ، ليرى بعينيه البلاد التى كانت السبب فى نكبة وطنه » .

وسأل مندوب الجريدة الشيخ محمد عبده عن رأيه فى حالة مصر وقتئذ ، وعن السياسة التى ينبغى اتباعها . فأجاب الشيخ : « لقد وجه إلىّ هذا السؤال مرارا منذ جئت إلى لندن ، وكل انجليزى لقيناه يؤكد لنا أنه يريد الخير لمصر . لكن أين هم رجال السياسة عندكم الذين حاولوا تأييد تصريحاتهم وتأكيداتهم ؟ إننا معشر المصريين من أرباب حزب الحرية كنا نظن أن الانجليز يناصرون قضية الحرية ، لكننا لم نعُدْ نعتقد بمثل هذه الظنون : فإن الحقائق أقوى وأبلغ من الكلام . إنّا نرى أن انتصاركم للحرية إنما هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وأن عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل ! لقد قضيتم على عناصر الخير فينا ، لكى يكون لكم من ذلك حجة للبقاء فى بلادنا » .

قال المندوب : « صدقنى . هذا ليس بصحيح ، وإن يكن يبدو كذلك . فلا المستر غلادستون ولا أحد من الوزراء يريد شيئا آخر غير الجلاء عن مصر فى أقرب فرصة وعلى أتم وجه » .

الشيخ : « إذا كان الأمر كذلك فلِمَ لا تغادرون بلادنا فى الحال ؟ لقد علمنا الانجليز شيئا واحدا : هو التضامن فى رغبتنا أن نراكم ترحلون عن بلادنا ... حق إننا تطاحنا وأردنا أن نحطم استبداد حكامنا ...شكونا من الأتراك ، لأنهم أجانب عن وطننا ، ورغبنا لبلادنا إصلاحا سياسيا وتقدما يشبه تقدم أوروبا فى طريق الحرية . لكننا الآن نعلم أن هنالك ما هو شر من استبداد الحكام ، وشر من ظلم الأتراك . وليس فى مصر من قد بلغ به الظلم حدا يرجو معه مساعدتكم . إن لنا إليكم رجاء واحدا : هو أن تغادروا بلادنا حالا من غير رجعة » .

المندوب : « وتوفيق (الخديو) هل تصفحون عنه كما صفحتم عن الأتراك ؟ » .

الشيخ : « توفيق باشا أساء إلينا أبلغ السوء ، لأنه مهّد لدخولكم بلادنا . ورجل مثله ، انضم إلى أعدائنا أيام الحرب ، لا يمكننا أن نشعر إزاءه بأدنى احترام . لكنه إذا ندم على ما فرط منه ، وإذا عمل على الخلاص منكم ، فربما غفرنا له سوءاته . إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية ! »

المندوب : « والفرنساويون ؟ إننا إذا تركنا مصر الآن فهذا معناه أنهم يحتلون بلادكم بدلا عنا » .

الشيخ : « لا تظن ذلك . الفرنساويون يعرفون أننا لا نقبل حكمهم ،

كما لا نقبل حكمكم . نقاومهم كما قاومناكم . إننا لا نريد لوطننا حكاما أجانب عنا ، كائنة ما كانت بلادهم . ونحن نعرف كيف نجعل حكمهم فينا أمرا مستحيلا . ومهما يكن الحال ، فالفرنساويون لا يستطيعون أن يسيئوا إلينا أكثر مما أسأتم إلينا أنتم » .

المندوب : « والمهدى ؟ »

الشيخ : «لا خطر على مصر من حركة المهدى ؛ إنما الخطر من وجودكم أنتم فيها . وإنكم اذا غادرتم مصر ، فالمهدى لن يرغب فى الهجوم عليها ، ولن يكون فى هجومه أدنى خطر . وهو الآن محبوب من الشعب : لأنهم يرون فيه المخلّص لهم من الاعتداء الأوروبى ، وسينضمون إليه عند قدومه» .

المندوب : « أليس السودانيون قوما متعصبين ؟ »

الشيخ : « ليس السودانيون أكثر تعصباً منى . حينما كنتُ أعلم الفلسفة فى القاهرة ، كان كثيرون من الطلبة المصريين يخشون حضور دروسى ، بينما كان هناك أربعة وثمانون طالبا من السودان ، وكانوا جميعا يحضرون للاستماع إلىّ ! نعم ليس السودانيون متعصبين ، لكنهم اذا شعروا بالخطر الأجنبى يتهدد بلادهم ، ثاروا وأصبحوا حينئذ متعصبين . وما مثلهم فى ذلك إلا مثلكم أنتم إذا رأيتم جيشا من المسلمين فى شوارع لندن ! » .

المندوب : « ألهذا الشعور علاقة بخبر الهياج فى بلاد العرب ؟ »

الشيخ : « الخبر صحيح ، وكنا ننتظره منذ زمان . ولا شك أن تعاهدكم مع الأحباش قد سهل هذا الهياج . فالمسلمون إذا هددوا قاموا للجهاد ، وليس أهل اليمن أشد تعصبا من أهل السودان ، ولكنهم يحبون حريتهم كما يحبها العرب جميعا » .

المندوب : « وما ذا يجب أن نفعل لإيقاف هذه العاصفة ؟ »

الشيخ : « كفّوا عن تهديدنا وغادروا مصر » .

المندوب : «ولكن ماذا يكون مصير المسيحيين فى مصر إذا تحقق جلاء جيوشنا عنها ؟ فهلا تحدث فيها مذابح جديدة ؟ »

الشيخ : « لم يحدث فى مصر مذابح اللهم إلا المذابح التى سببها الإنجليز أنفسهم : إن وصول أسطولكم الى الاسكندرية هو الذى دفع الغوغاء الى الشغب فيها ، وإنّ إنزالكم جيوشكم بها هو سبب حدوث الاضطراب فى طنطا . لم يقتل من المسيحيين أحد قبل حضوركم الى مصر ، ولن يحدث شىء من ذلك بعد جلائكم . فلا نزاع بيننا وبين المسيحيين ، ما عاشوا فى ظل قوانيننا ولم يتدخلوا فى شؤون حكومتنا »

المندوب : « إذن فأنت تعتقد أن لا شىء يحول دون السلام والرغد فى مصر إلا وجودنا فيها ؟ ألست تود أن يعود حزب الحرية قبل مغادرتنا ؟ ألا ترغب فى أن تعود أنت ورفاقك الى مصر ؟ »

الشيخ : « إننى كنت أقترح سياسة جديدة لو خطر ببالى أن لدى حكومتكم أدنى رغبة جدية فى خير بلادنا . ولكن الأمر ليس كذلك ، فما فائدة الكلام ؟ »

المندوب : « لكن تكلم فإنى أرى ، كيفما كانت رغبة الحكومة ، أن فى انجلترا كثيرين ممن يريدون انصاف مصر بأى ثمن » .

الشيخ : « إذا رأت انجلترا أن تتدارك خطأها كما قلت ، فيجب عليها : أولا أن تقدم إلينا دليلاً على إخلاصها وحسن نيتها ، فتأمر بإرجاع جيوشها من مصر ؛ ثانيا أن تتفق مع دول أوربا ومع سلطان تركيا على إقامة حاكم جديد فى مصر . وليس لى أن أذكر اسم ذلك الحاكم ، بل ينبغى على كل حال أن يُختار من الرجال المحبوبين من الشعب المصرى ، وأن يكون تعيينه لمدة محدودة ، نحو سبع أو ثمانى سنين ، وفى نهاية تلك المدة يحق للشعب أن يختار بنفسه من يحكمه » .

المندوب : « وإذا وجد حاكم كهذا فهل تعود أنت ورفاقك المنفيون الى مصر ؟ وماذا تقول فى عرابى ؟ »

الشيخ : « أحب أن يعود عرابى إلى مصر . وإنى أرى خير منصب له أن يكون رئيسا لمجلس النواب الذى ينشأ لمراقبة حاكم مصر ، وعرابى خطيب وأفكاره نبيلة وهو رجل مخلص ، ونفوذه يتجه نحو الخير ، لكنه لا يعنى

بالتفاصيل ، فلا يصلح لتولى الأعمال الإدارية . فإن أرجعتموه فليكن رئيسا للمجلس إذا انتخبه الأعضاء » .

المندوب : « والوزارة ؟ إن حكومتنا تشكو من أنها لا تجد مصريين من أهل الكفاية لتولى الحكم فى البلاد » .

الشيخ : « إذا كانت حكومتكم فشلت فى ايجاد هؤلاء الرجال فالذنب ذنبها . مصر لا يعوزها رجال ذوو كفاية شرفاء ، لكنكم تطلبون أشخاصا ينفذون ماتريدون . وليس فى مصر رجل مخلص لبلاده يقبل أن يعمل لمصلحة الحكومة الانجليزية . دعونا نختار لنا حاكما ، وسترون متضامنين فى العمل معه . إننا معشر المصريين نريد الإصلاح ، نريد العدالة ، ونريد التعليم . نريد حاكما نستطيع احترامه . دعوا أمتنا تختار زعيمها ودعوها تحكم نفسها بنفسها » .

المندوب : « وهل جميع المصريين آراؤهم مثل آرائك ؟ إنى أميل إلى الظن أن تسعين فى المائة من الفلاحين يفضلون حكومة مسيحية تخفف عنهم ثقل الضرائب على حكومة إسلامية تفرضها عليهم » .

الشيخ : « تلك أوهام ! لقد أثقلت ظهور الفلاحين بالضرائب ، لكنهم فى الوقت الحاضر لا يشكون منها ، وإنما يفكرون قبل كل شىء فى تخليص بلادهم من حكم الأجنبى ، بل انهم ليفضلون أن يدفعوا أكثر مما يدفعون لتحقيق هذه الغاية . إنى أعلم ذلك : فإنى على اتصال بالمراسلين فى جهات

كثيرة من مصر . يمكنكم إذن أن تلغوا جميع الضرائب ، فلن يحمدوا لكم هذا الصنيع ، إذا كنتم تتخذون من ذلك عذرا للبقاء فى بلادهم . لا لا ! اتركونا وشأننا ، فإننا إذن نسأل الله أن يجزيكم خيرا مما صنعتم . ولكن لا تحاولوا أن تُسْدوا إلينا جميلا لا نرتجيه منكم ، فان معروفكم قد مسَّنا بضرر بليغ » .

وكذلك نشرت بعض الجرائد الأخرى الانجليزية كجريدة « التروث » التى يحررها النائب « لابوشير » وجريدة «التيمس» المشهورة شيئا عما جرى بين محمد عبده ورجال السياسة الانجليزية من محادثات فى الأحوال المصرية . ونشرت « العروة الوثقى » نبذة مما جرى بين الشيخ المصرى و بين « اللورد هرتنجتون » وزير الحربية الانجليزية حينئذ .

سأل اللورد هرتنجتون الشيخ محمد عبده : « ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانجليزية ؟ أو لا يرون حكومتنا خيرا لهم من حكومة الأتراك وحكومة الخديو إسماعيل والخديو توفيق ؟ » .

فأجاب الشيخ : « كلا إن المصريين قوم عرب وأغلبهم مسلمون وفيهم من محبى أوطانهم مثل ما فى الشعب الانجليزى ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد ، وهو على علم بطبائع الأمم ، أن يتصور هذا الميل فى المصريين » .

فقال الوزير : « هل تنكر أن الجهالة عامة فى أقطار مصر وأن الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبى والحاكم الوطنى ، وأن ما ذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون فى الأمم المهذبة ؟ » .

فأخذت الشيخ حدة وقال : «أولا : إنّ النفرة من ولاية الأجنبى ونبذ سلطته مما أودع فى فطرة البشر ، وليس بمحتاج إلى الدرس والمطالعة ، وهو شعور إنسانى ظهرت قوته فى أشد الأمم توحشا « كالزولوس » الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم فى الدفاع عن أوطانهم . وثانيا : إن المسلمين ، مهما كانوا وعلى أى درجة وجدوا ، لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التى يتصورها الوزير : فان الأميين منهم لا يفوتهم العلم بضرورات الدين ، ومن أجلاها عندهم أن لا يدينوا لمخالفيهم فيه ، وإنّ لهم فى خطب الجمعة ومواعظ الوعاظ فى مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية ، وإن جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ، ويُحدِث فيهم من الاحساسات الشريفة الإنسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الأمم ، خصوصا المصريين الذين ينطقون باللسان العربى ويفهمون دقائق ما أودع فى ذلك اللسان وهو لسان دينهم . وثالثا : إن أرض مصر من زمن محمد على قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود فى بلاد أوروبا ، وأخذ كل مصرى نصيبا منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون وكاتبون . والأخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية ؛ ومن لم

يقرأ يستنبئ الأخبار من القارئين . فبهذا أضافوا إلى الشعور الطبيعى ، والتقليد الدينى ، محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومى ، قوى بها الميلان الأولان ، ولا أظنهم يخالفون فى ذلك سائر الأمم » .

وعلقت «العروة الوثقى» على هذا الحديث متسائلة: أين أذكياء المصريين ليرى كل واحد منهم منزلة أمته عند رجال الحكومة الانجليزية ؟ هذا وزير الحربية الانجليزية يظن أن الجهل قد بلغ من المسلمين عموما والمصريين خصوصا إلى حد سلب عنهم كل احساس انسانى ، بحيث لا يميزون بين الغريب والقريب ولا بين العدو والحبيب . إنْ كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الانجليزية فى الأمم التى يتسلطون عليها ، فأى معاملة تكون منهم لها ؟ ألا يعاملونها معاملة العجماوات ؟ بلى . وهذا تصرفهم فى البلاد الهندية يشهد بأفصح لسان على ما يعملون .

« فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرهما : إمّا أن يتكاتفوا ويتضافروا ويبذلوا أموالهم وأرواحهم فى حفظ شرفهم الإنسانى ، وأداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون إليهم إلا كما ينظرون إلى البغال والحمير . وإنْ همّوا بذلك وجدوا لهم من إخوانهم المسلمين أنصارا ينتظرون الآن حركة منهم : وهذا أشرف الأمرين وما هو عليهم بعسير . وإما أن ينسلخوا عن جميع الخصائص الإنسانية ، ويخلعوا حلية الإيمان ،

ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليحملوا ناف العبودية على أعناقهم ، وليقاسموا الحيوانات فى حظوظها . وليستعدّوا لكل ذلة. وليقبلوا كل ضيم : وهذا أعسر الأمرين وأدناهما ، وما أظن مصريا يختاره لنفسه ؛ ولئن اختاره — معاذ الله — فيذهب الله بهم ويورث الأرض قوما آخرين » .

تلك صفحات من دفاع محمد عبده عن قضية بلاده . وإنها لصفحات مجيدة لا تحتاج إلى تعليق .

***

العودة إلى بيروت : وعاد الشيخ من لندن إلى باريس ، ثم سافر إلى تونس وإلى بلاد أخرى . وذهب إلى مصر متنكرا ، كما يشير هو نفسه فى كتاب سرى إلى بعض أعضاء جمعية « العروة » ، كتبه أوائل سنة ١٨٨٥ ، وقد جاء فيه : « ذهبت إلى باريس . فما عدت أن تلقيت من الرأى الجديد أن أتوجه نحو المشرق ، حيث مسيل الحادثات ومخرق الداريات ، فمررت على بلاد كثيرة منها مدينة تونس ، عملت فى جميعها على إحكام العروة وتمكين عقودها . ثم أصعدت بعد ذلك إلى :

بلد خلعت به عذار شبيبتى وطرحت فى كف الخطوب عنانى

وأنا فيه أتعرف الوجوه ، وأتنكر للعيون ، وأسأل الله نجاح العمل وإقبال الأمل » .

لكن السياسة الإنجليزية وقفت للجريدة بالمرصاد ، كما قلنا ، ونجح

الانجليز مرة أخرى فى القضاء على تلك الآمال ، « وأخفق حلم السيد جمال الدين الأفغانى بإنشاء دولة إسلامية تنهض بالشرق نهوضا يزاحم الغرب بالمناكب ، ويصد من عدوانه » .

وعاد الشيخ إلى بيروت أوائل سنة ١٨٨٥ . واتخذ له دارا فى ضاحية من ضواحى المدينة فى « برج أبى حيدر » ، طلبا للعزلة والهواء النقى ؛ ولكنه ما كاد يستقر فيها حتى أقبل عليه الفضلاء وأهل العلم والأدب من جميع الطوائف والملل . ثم استدعى فى ختام سنة ١٨٨٥ للتدريس فى « المدرسة السلطانية » التى أسسها أنصار « مدحت باشا » . ولم يكن يدرس فى تلك المدرسة من العلوم العربية والدينية إلا مبادئ النحو والصرف مع شىء من فقه العبادات ؛ فوضع محمد عبده برنامجا جديدا للتدريس ، أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعانى والإنشاء والتاريخ الإسلامى والمعاملات من الفقه الحنفى ، حتى كانت دروسه فى المدرسة تستغرق النهار كله أحيانا . ولم يكن نشاطه فى آخر درس يقل عن نشاطه فى الدرس الأول ، فيما يروى عنه أحد تلاميذه هناك . « ولما تفتقت أذهان التلامذة ، وارتقت مداركهم قرأ لهم فى علم الكلام قسما من « إشارات » ابن سينا ، وفى المنطق كتاب « التهذيب » ، واستمر على الإملاء فى التاريخ والمعانى ، وجرى فى دروس الإنشاء على شرح « نهج البلاغة » ، و « ديوان الحماسة » .

ولم تمضِ على هذا المنوال الشهور الأولى من السنة حتى دخلت المدرسة السلطانية فى طور جديد : نظر الشيخ فى إدارة المدرسة ومناهج التعليم فيها ، فوقف على عيوبها ؛ كانت همم معلميها تقف عنـد أداء الوظيفة أداء آليًّا ، قانعين بالغاية المباشرة من ضبط هيئة التلامذة ، وتحفيظهم أشياء من قواعد العلوم الجافة ، حتى كان التـلامذة يجدون المدرسة « حبسا يقضون عامهم فى توقع الانطلاق منه » ، فسما الشيخ المصرى بأنظار الأساتذة إلى أفق أعلى ، ووجه أكبر عناية الى الجوانب الروحية والأخلاقيـة فى التربية والتعليم . عندئذ أكبر المعلمون شرف مهنتهم ، وما لبثوا أن ظفروا بلذائذها ، و « قد تبدلت سآمة تلامذتهم بهجة بدت على وجوههم » ؛ و« غدا الأستاذ وهولا يخرج من درس إلا ليدخل فى مذاكرة أو بحث ؛ والمعلمون والتلامذة حافّون من حوله ، يلتقطون منثور دره ، ويجنون طيب ثمره ؛ وهو يتلقاهم بمحيا طلق وصدر رحب ، متنزلا فى محادثتهم الى متناول عقولهم ، متلطفا فى إرشادهم وتفهيمهم ، حتى تغلغل حبه فى خلايا قلوبهم » .

ولما انقضت السنة المدرسية ، وأقيم الاحتفال بختامها ، سأله أحد الأدباء على مسمع من المحتفلين، وكانوا زهاء الألف، أن يخطبهم فى موضوع يختاره . فوقف الأستاذ وارتجل خطبة ضافية استغرقت أكثر من ساعة ، أبان فيهـا

عن « علة تأخر الشرق » بيانا أخّاذًا بليغا أدهش الحاضرين الذين لم يألفوا الخطابة فى الأغراض الاجتماعية الحيوية ، ولم يكن يجرأ منهم أحد على الوقوف مثل هذا الموقف إلا بعد طول الاستحضار والمبالغة فى التحبير والتنميق ؛ نهض الشيخ ودعا الناس الى العناية بدراسة علوم « الحياة البشرية » ، كعلوم النفس والأخلاق والتربية الدينية والوطنية، فقال : « أما العلم الذى نحس بحاجتنا إليه ، فيظن قوم أنه علم الصناعة ، وما به إصلاح مادة العمل فى الزراعة والتجارة مثلا . وهذا ظن باطل : فإنا لو رجعنا إلى ما يشكوه كل منا نجد أمرا وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها . إنّ الصناعة لو وجدت بأيدينا ، نجد فينا عجزا عن حفظها ، وأن المنفعةقد تتهيأ لنا ثم تنفلت منا لشىء فى نفوسنا : فنحن نشكو ضعف الهمم ، وتخاذل الأيدى ، وتفرق الأهواء ، والغفلة عن المصلحة الثابتة ؛ وعلوم الصناعات لا تفيدنا دفعا لما نشتكيه . فمطلوبنا علم وراء هذه العلوم ، ألا وهو العلم الذى يمس النفس ، وهو علم الحياة البشرية ، والعلم المحيى للنفوس هو علم أدب النفس ، وكل أدب لها فهو فى الدين . فما فقدناه هو التبحر فى آداب الدين ، وما نحس من أنفسنا طلبه هو التفقه فى الدين . ولا أريد أن نطلب علما محفوظا ، ولكنا نطلب علما مرعيا ملحوظا . وما أودعته الديانة من الآداب النفسية والكمالات الروحية لم يختلف فى صحته أحد من البشر ، حتى

من يظن نفسه غير آخذ بالدين . فإذا استكملت النفس آدابها ، عرفت مقامها من الوجود ، وأدركت منزلة الحق فى صلاح العالم ، فانتصبت لنصره ، وأيقنت بحاجتها الى مشاركيها فى الوطن والملة ، فأخذت بالفضيلة الجامعة للفضائل ، وهى ما يعبّر عنها بحب الوطن والدولة والملة . ولا نريد من الحب ميلا خياليا ولكنا نريد منه ميلا يبعث على العمل ، كما يرشد إليه الدين والأدب . فمتى تحلّت النفوس بهذه الفضيلة أبصرت مواقع حاجاتها ، فاندفعت إلى طلبها ، وطرقت لها كل باب ، لا ترجع حتى تظفر أو يدركها الأجل » .

***

ويذكر السيد عبد الباسط فتح الله أنه لما توفيت زوجة الأستاذ فى بيروت « وتركت له بنت نفاس ، وليس فى بيته أنثى تقوم بأعبائه ، وهو فى دار غربة ، رمىّ محنة ، وضحىّ نكبة ، أصابه غم قطعه عن التدريس أياما . وأكبرَ الأصحابُ مصابَه ، واضطربت له المدرسة : فلما استأنف الحضور ، تحيّر التلامذة كيف يقابلونه ، وبأى لسان يعزّونه ويخاطبونه ؛ فما هو إلا وقد دخل عليهم ، فسلّم وجلس ، والكل مطرقون منصتون ، لا يدرون ماذا يقولون ولا ما يصنعون ؛ فبادرهم بقوله : « أظن أن النوبة نوبة الانشاء » .

فتلجلجت الألسنة ولم تُبِن ، فحل عقدتها بقوله : اكتبوا ! وأملى عليهم :

تعز فإن الصبر بالحر أجمل وليس على ريب الزمان معول

حتى أتى على آخر القصيدة ؛ ثم أنشأ يشرحها على عادته فى مثل ذلك

الدرس ؛ فأدرك التلامذة أنه يلقى عليهم ، فى صورة الدرس المعتاد ، درسا أبعد مرمى وأسمى غاية فى الحكمة العملية والأخلاق» .

***

ولما ذاع علم الشيخ وظهر فضله ، كثر تردد الناس عليه ولهجهم بذكره و « أجمع السوريون على إجلاله والولوع به إجماعا لم يقع مثله لأحد » كما يقول الأمير شكيب أرسلان ، « فكنت ترى جميع الفرق والنحل والطوائف بدون استثناء تزدحم حول ذلك المنهل العذب ، وكان هو بسعة عقله وعلو إدراكه وإحاطة نظره يتفاهم مع كل قبيل منهم ، كأنه نشأ فيهم . وكان يحضر مجلسه علماء السنة ، ومجتهدو الشيعة ، وعقلاء الدروز ، ونبهاء المسيحيين واليهود ، وكان كل أولئك لا يجدون غضاضة فى التردد عليه ؛ بل إن مجلسه لم يكن يخلو من الملاحدة الذين كانوا يقصدون إليه ، ليسمعوا آراءه فى الإلهيات والأديان ، فكان الأستاذ يناظرهم بكل تؤدة ، ويحل لهم المشكلات التى كانوا إذا سألوا عنها غيره من العلماء أعجزهم الجواب عنها : فكنت تراهم منصتين إليه حيارى أمامه ، لا يدرون ماذا يقولون ، مع أنهم يكونون قبل حضورهم فى مجلسه قد آلوا أنهم يعجزونه كما أعجزوا غيره » !

وكان الشيخ يتجنب انتقاص عقيدة أحد ممن يغشون مجلسه ، وكان يحرص على ألاّ تصدر منه كلمة تمسّ مذهبا مخالفا لمذهبه ، ويتعمد ألا يظهر

لغير المسلمين من زوّاره وسمّاره شيئا من فضائل الإسلام . «بل كان يقول ما يعلم من القضايا التى يسأل عنها ، ويفيض فى شرح الغوامض وحل المشكلات بالطريقة التى لم يعهدوا مثلها ، والتى عُمْدتها الفلسفة الإسلامية . فكان مجموع كلامه يؤثر فيهم ، ويعلى مقام الإسلام فى نظرهم ، ويريهم أنهم لم يكونوا يعرفون عن الاسلام شيئا تقريبا » . « فبعد أن كانوا يرون فى الاسلام شيخا معمما قصير أمد الفكر ، أو بالكثير فقيها جامدا متورعا ، صاروا يرون فيه ـ بحسب تمثيل الأستاذ الإمام إياه ـ فقيها نيّرا وفيلسوفا كبيرا واجتماعيا محنكا . وهناك شاهدوا الإسلام كما كان عليه مثل الغزالى أو كما كان عليه ابن رشد ، وكما كانت عليه الطبقة العليا » .

* * *

ورضى الأستاذ أن يلقى دروسا فى تفسير القرآن فى مسجدين من مساجد بيروت : فى المسجد الكبير وفى مسجد « الباشورة » . وكان لا يلتزم فى التفسير كتابا ، كما يقول السيد رشيد رضا ، «وإنما يقرأ فى المصحف ، ويلقى ما يفيض الله على قلبه » فأقبل البيروتيون إقبالاً منقطع النظير على دروس ذلك العالم المتسامح الواسع أفق النظر ، والذى قال عنه أحمد عرابى باشا : «إن رأسه أصلح للبس القبعة من لبس العمامة ! » وحرص النصارى أنفسهم على ألاّ يفوتهم حظ الاستماع إليه ، « فكان يقف فريق منهم فى باب الجامع

العمرى على مقربة من حلقة الأستاذ » ؛ ثم استأذنوه فى دخول المسجد ليستمعوا إليه ، فأذن لهم .

وفى ليالى رمضان كان يستقرئ أحدَ تلاميذه السيرة النبوية على مسمع من الزائرين مدة ساعة من بعد العشاء ، « ابتعادا عن اللغو الذى يقضى فيه المتسحرون ساعات الليل حتى السحور » . وعلى هـذا النحو أصبح بيت الأستاذ فى بيروت مدرسة عالية يؤمها طلاب الحقائق ، و « عشاق المعارف من جميع الملل والطوائف » .

* * *

واستطاع الأستاذ فى بيروت ، على كثرة اشتغـاله بالتدريس ، أن يجد الوقت للتأليف وكتابة المقالات فى الصحف والمجـلات : فترجم من الفارسية إلى العربية رسالة «الرد على الدهريين» للسيد جمال الدين الأفغانى ، وصدرها بمجمل من سيرة أسـتاذه ؛ وأعد للنشر الدروس التى ألقـاها على تلاميذه السوريين فى شرح « نهج البلاغة » لعـلى بن أبى طالب ، و « مقامات » بديع الزمان الهمذانى ؛ وفى بيروت اهتدى إلى نسخة من كتـاب « البصائر النصيرية » للساوى فى المنطق : فدرس الـكتاب وشرحه ، ونشره بعد ذلك فى مصر سنة ١٨٩٨ ؛ وفى بيروت أيضا أملى على تلاميذه دروسا فى علم التوحيد ، ظهرت خلاصتها بعدُ فى مصر فى «رسالة التوحيد» ، التى تعدّ بحق من أطرف ما كتب فى الفلسفة وعلم الـكلام . وأخيرا كتب الأستاذ رسالتين مسهبتين

اصلاحيتين : إحداهما إلى شيخ الإسلام بالأستانة عن إصلاح التعليم الدينى ، والثانية إلى والى بيروت عن « إصلاح القطر السورى » من طريق التربية والتعليم .

* * *

التأليف بين الأديان الثلاثة : اتصل الشيخ بالكثيرين من فضلاء بيروت وأعيانها : وصلته روابط الود بمحيي الدين بك حمادة رئيس البلدية ، فتزوج بنت أخيه الحاج سعد الدين حمادة بعد وفاة زوجته الأولى .

وكان من أصدقاء الأستاذ هناك الشيخ عبد القادر القبانى ، صاحب جريدة «ثمرات الفنون» ؛ والشيخ سعيد الشرتونى المسيحى ، صاحب معجم « أقرب الموارد » ؛ والشيخ ابراهيم اليازجى ، أشهر كتاب العصر فى سوريا وغيرهم .

وقد عرفنا أن الأستاذ كان متسامحا يكرم أهل العلم والفضل ، مهما كانوا مخالفين له فى العقيدة . فلا عجب أن نراه فى بيروت يسعى إلى توكيد روابط الود بين أهل الأديان الثلاثة السائدة فى الشرق العربى وقد حانت الفرصة لذلك حين جاء إلى سوريا « مرزا باقر » الفارسى الذى كان قد عرفه الشيخ محمد عبده فى باريس أثناء الاشتغال بتحرير العروة الوثقى . واتصل

محمد عبـده فى بيروت ببعض الشخصيات المعروفة بالاهتمام بالشؤون العامة ؛ وألف هو ومرزا باقر جمعيةسرية سياسية دينية ، غرضها التأليف بين الإسلام والمسيحية واليهودية ، والعمل على إقامة الوئام بين أهل هذه الأديان ، والتعاون على إزالة ضغط الغرب على الشرق . وانضم إلى تلك الجمعيـة « مؤيد الملك » أحـد وزراء إيران ، و « حسن خان » مستشار السفارة الإيرانية فى الأستانه، كما انضم إليها بعض الانجليز واليهود .

وكان من أعضاء الجمعية قس انجليزى اسمه « اسحاق تيلر » أصبح داعية لها فى انجلترا . وكان قد عرض لهذا القس شبهات عن حقيقة الإسلام : رأى خاصة المسلمين متمسكين بالبدع والمحدثات ، وكأنها عندهم من أصول الدين ، ورأى عامتهم حريصين على الخزعبلات والخرافات التى تنفر منها الطباع السليمة . ودارت عن هذه الشبهات ، بين الشيخ المصرى والقس الانجليزى ، مراسلات ومساجلات دافع فيها محمد عبده عن مقاصد الشريعة كاشفا القناع عن محاسنها العديدة ؛ وأعجب القس البروتستانتى بما وجد عند الشيخ المسلم من عقل راجح وحكم سديد ؛ وانتهت المساجلات بزوال كل شبهة عن مقاصد الدين الإسلامى. واقتنع «اسحاق تيلر» بوجهة نظر محمد عبده، وكتب فى ذلك مقالات نشرها فى بعض المجلات الانجليزية ، وترجمها « مرزا باقر » إلى العربية، ونشرت فى مجلة «ثمرات الفنون» البيروتية ؛ ومما قاله فيها : «إن الدين الإسلامى لايناقض

الديانة المسيحية بل يتفق معها : فانه صدى إيمان ابراهيم . والمسلمون يؤمنون بأن أعظم هداة البشر هم ابراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله ، وعيسى كلمة الله ، ومحمد رسول الله . ولسيدنا عيسى مقام جليل فى الأربعة » ؛ وقال أيضا : « جاء الإسلام فكسح الأباطيل (التى ابتدعها بعض رؤساء الكنيسة المسيحية) ، وأظهر الأحكام الأساسية للدين وهى توحيد الله وتعظيمه ، وبدّل الإنسانية بالرهبانية ، وأرشد الناس إلى الأخوة الصحيحة ، والحقائق الأساسية للطبيعة الإنسانية ، ولم يحمل الإنسان على التجرد من الدنيا والانصراف إلى الروحانية المحضة » .

***

وقد روى الشيخ « عبد الوهاب النجار » أن « اسحاق تيلر » عمد بعد هذا إلى إعلان اقتناعه برأى محمد عبده : فجمع القساوسة فى لندن ، وقام فيهم خطيبا ، و بيّن لهم الشبه التى أوردها على الإسلام ، وذكر لهم ردود الشيخ المصرى عليها ؛ وسألهم إنْ كان لهم اعتراض أم يسلمون معه كما سلم هو للشيخ . و يظهر أن القساوسة خشوا أن يوقع اتفاق الرجلين فتنة فى العالم المسيحى ، وخصوصا لما كان لاسحاق تيلر من علو المنزلة والقدرة على التأثير والاقناع . فخرجوا لساعتهم وقابلوا « الملكة فكتوريا » على غير موعد سابق ، وعرضوا عليها خطر المسألة ؛ فطمأنتهم ووعدتهم أن تعنى بالأمر . وبادرت الملكة بالاتصال بالسلطان عبد الحميد ، وأخبرته أن فى بيروت مصريا خطرا اسمه « محمد

عبده» ، يوشك أن يفسد ما بين المسلمين والمسيحيين! فأما السلطان «عبدالحميد» فيظهر أنه تأول تلك المسألة تأويلا آخر : خشى أنه إذا اعتنقت انجلترا الإسلام، فسيصبح الحاكم الانجليزى أقوى شخصية فى المسلمين ، وتؤول الخلافة بالطبع إلى الملكة ڤكتوريا ، وتخرج من آل عثمان . من أجل هذا أسرع السلطان بمخاطبة والى بيروت ، وخاطب أيضا الغازى « مختار باشا » فى مصر . وزار الغازى لهذا الغرض الخديو توفيقا ، ولم يخرج من حضرته حتى صدر أمره بالسماح للشيخ محمد عبده بالعودة إلى مصر . وأرسل السلطان إلى بيروت لتسهيل ترحيل الشيخ المصرى . فلما تم ذلك، بعث إلى الملكة يخبرها أنه سأل عن الرجل الذى خاطبته بشأنه ، فعلم أنه غير موجود فى بيروت ، إنما هو الآن فى عرض البحر !

وهكذا ، فى رواية الشيخ النجار ، صدر العفو عن أحد قادة الثورة العرابية ، فعاد من منفاه فى ظروف عجيبة ، تصلح أن تكون موضوعا لقصة طريفة أو لفِلْم من أفلام السينما .

استئناف الجهاد فى مصر

اللغة الفرنساوية : بعد أن عاد الشيخ محمد عبده إلى وطنه عُيّن سنة ١٨٨٨ قاضيا فى المحاكم الأهلية الابتدائية خارج القاهرة ، ولكنه لم يكن راضيا عن الاشتغال بالقضاء ، فقال حين سمع خبر تعيينه :

«ما خلقت لأكون قاضيا ، بل لأكون معلما ؛ وقد جربت نفسى فى التعليم فنجحت» .

آثر الشيخ أن يعود إلى التعليم الذى أخذ بمجامع قلبه ، مع أنه كان يعلم أنه يرتقى فى القضاء إلى أعلى درجة ، وأن مجال التدريس ضيق محدود؛ وطلب أن يعود إلى « مدرسة دار العلوم » ، ولكن الخديو أبى أن يجيب طلبه خوفا من تأثير آرائه السياسية فى التلاميذ .

عيّن الشيخ قاضيا فى محكمة بنها ثم فى محكمة الزقازيق ثم فى محكمة عابدين، وبعد عامين عيّن مستشارا فى محكمة الاستئناف .

وجد محمد عبده أن الحكم بالمحاكم الأهلية ـ خصوصا فى الجنايات ـ

جارٍ على أصول القوانين الفرنساوية . وكان جلوسه بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين فى لغتها: فكان ذلك مما قوّى عنده الميل إلى تعلم اللغة الفرنساوية ، حتى لا يكون فى معرفة القوانين أضعف ممن يجلس معهم مجلس القضاء .

وحانت الفرصة الملائمة لذلك حين جاء الشيخ إلى القاهرة قاضيا بمحكمة عابدين ، فأقبل على تعلم الفرنساوية بجد ومثابرة . ووجد القاضى معلما ، فجاءه حاملا فى يده كتاب نحو فرنساوى (جرامير) فسأله : « ما هذا ؟ » فقال المعلم : « كتاب جرامير » فقال الشيخ : « لا وقت عندى لأن ابتدئ ، وإنما عندى زمن لأن أنتهى » . ويحدثنا الشيخ أنه ناول معلم النحو قصة من تأليف « الكسندر دوما » وقال له : « أنا أقرأ وأنت تصلح لى النطق ، وتفسر لى الكلم ، وما عدا ذلك فهو علىّ ، والنحو يأتى فى أثناء العمل » . ويقول بعد ذلك : « وهكذا أتممت الكتاب ، وكتابا بعده ، وثالثا عقبه ؛ وكنت أطالع وحدى بصوت مرتفع ، كلما وجدت نفسى فى بيتى خاليا . فتعلمت مبادئ اللغة الفرنساوية ، وحصلت منها ما كان يمكننى من القراءة والفهم ، ولكن ما كنت أستطيع الكلام » .

وسافر الشيخ بعد ذلك إلى فرنسا وسويسرا عدة مرات فى شهور الصيف . وكان يحضر فى « جامعة جنيف » دروس العطلة فى الآداب وتاريخ الحضارة . وبهذه الطريقة تعلم اللغة الفرنساوية فى أوقات الفراغ ، مع اشتغاله بالقضاء فى المحاكم .

ولقد أجمع أصحاب الأستاذ الإمام وخاصته على أنه أتقن اللغة الفرنساوية تحدثا وقراءة وفهما ، على الرغم من قرب عهده بتعلمها . وهذا ما شهد به أخيرا الأستاذ لطفى السيد باشا حين ذكر أن الشيخ محمد عبده هو الذى كان يجلو لإخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنساوى « تين » فى كتابه المشهور عن « الذهن » . ونحن نعلم من جهة أخرى أن الأستاذ الإمام قد أملى فى مرض موته فصلا بالفرنساوية نشره المسيو « دى جرفيل » فى كتاب له عن « مصر الحديثة » بعنوان « وصية سياسية للمرحوم المفتى الشيخ محمد عبده » ؛ كما نعلم أن الشيخ قد ترجم عن الفرنساوية كتاب « التربية » للفيلسوف الإنجليزى « هربرت سپنسر » ترجمة تدل على تمكنه من تلك اللغة .

وقد قال الأستاذ الإمام مستخلصا العبرة من تعلم اللغات الأجنبية : « ثم إن الذى زادنى تعلقا بتعلم لغة أوروبية هو أنى وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أنه على شىء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ، ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى ، إلا إذا كان يعرف لغة أوروبية . كيف لا ! وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوروبيين فى جميع أقطار الأرض . وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم ؟ » .

* * *

اعدل العمامة : اشتغل الشيخ بالقضاء أعواما ، فكان فيه ممتازا ، كما كان شأنه فى كل ما تولاه من عمل ؛ واستعان بذكائه الفطرى وعلمه الفقهى وباللغة الفرنساوية التى تعلمها ، على فهم أصول القوانين التى جرى العمل بها فى المحاكم الأهلية المصرية .

ولقد كان بارعا فى تحقيق القضايا واكتشاف الحق فيها ، وكان له فى ذلك حدس صائب وفراسة صادقة أدهشت القضاة والمتقاضين على السواء . ولقد قال الشيخ نفسه فى ذلك : « إننى كثيرا ما أنظر فى قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوها كثيرة للحكم بالإدانة مثلا ؛ حتى إذا ماتمت المحاكمة ، وأردت النطق بالحكم تقوّض كل ذلك البناء الذى كنت بنيته فى ذهنى من وجوه ترجيح الإدانة ، وظهر لى بغتةً أن المتهم برىء حتما فأحكم بالبراءة » ! واشتهر محمد عبده بصدق الإلهام فى أحكامه ، وكثرت حوادثه فيه حتى أن ناظر الحقانية لما سمع ببعضها قال : « اتقوا فراسة المؤمن » .

وقد اشتهرت عن الشيخ فى جلسات القضاء عادة أو « لازمة » لم يكن يشعر هو بها ، ولكن سرعان ماعرفها المحامون والمتقاضون : كان يميل عمامته على جبهته إذا ثبتت عنده إدانة المتهم وأراد الحكم عليه بالعقاب ، وكان يميلها إلى الوراء قليلا إذا كان حكمه بالبراءة . واتفق أنه عاد إلى كرسى القضاء يوما بعد المداولة ، ولما جلس أمال عمامته على جبهته ، عندذاك فزع المتهم الذى

أدرك أن الشيخ سينطق بالحكم عليه لا محالة وصاح به : « فى عرضك اعدل (العِمّة) يا مولانا الشيخ حتى أقول لك الصريح ! » .

فضحك الحاضرون . ويقال إن استغاثة الرجل أفادته فى تلك القضية . واشتهرت هذه الحكاية فى مصر وقتئذ .

والواقع أن الشيخ محمد عبده كان « قاضى العدل والإنصاف لا قاضى القانون والرسوم » كما قال صديقه حسن باشا عاصم ، يوم تأبينه : فلم يتمسك بالشكليات ، ولم يتقيد بحرفية النصوص ، بل كان دائما يتحرى إظهار الحق وإصابة العدل ، مقتنعا أن القانون إنما وضع لأجل العدل ، لا العدل لأجل القانون .

وكان الشيخ القاضى يتوخى فى أحكامه تربية الجمهور وإيقاظ ضميره ، كما كان شديد العناية بالتوفيق بين الخصوم وإصلاح ذات البين بين العائلات. ومما قاله بهذا الصدد لقاض من تلاميذه : أنصحك أن تكون للناس مرشدا أكثر من أن تكون قاضيا . واذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه الى الحكم ؛ فإن الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر ، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح » .

* * *

محاولات لاصلاح الأزهر : للأزهر فى العالم الإسلامى منزلة ممتازة :

فلم تكن مهمته مقصورة على أن يكون مسجداً للعبادة، ولا معهدا للتعليم فحسب، وإنما أثّر الأزهر فى تكوين العقلية الإسلامية أثرا عميقا يفوق أثر المساجد والمعاهد . ومن أجل ذلك كان إصلاحه فى نظر الشيخ محمد عبده خليقا بكل عناية : لأنه بمنزلة إصلاح للأمة الإسلامية كلها .

وشرع الشيخ فى العمل لذلك الإصلاح أيام «الخديو توفيق»، ولكنه لم يستطع حينئذ إلا أن يدخل بعض الإصلاحات الثانوية . ووجد محمد عبده فى شيوخ الأزهر أنفسهم خصوما ناصبوه العداء منذ البداية . وأدرك حينذاك أنه لن يستطيع المضى فى حركة الإصلاح دون أن يظفر بتأييد الخديو والحكومة . ولكن الخديو توفيق لم يكن لديه استعداد لفهم التجديد المنشود، فلم ينظر إلى جهود الشيخ بعين العطف والفهم .

ولما جاء الخديو « عباس الثانى » ـ وكان قد تربى فى أوروبا ـ استبشر الناس بولايته ، ورأوا فيه فاتحة عهد جديد . وتقدم محمد عبده إلى عباس وكاشفه بجملة رأيه فى الأزهر ، ورغّبه فى إصلاحه وتحويله من الحال التى كان عليها ، وكان فى ذلك الحين أشبه بتكية من التكايا أو ملجأ من الملاجئ يأوى إليه العجزة والفقراء والكسالى !

* * *

رأى محمد عبده أن بقاء الأزهر على حاله يجعله عاجزا عن أداء رسالته .

وهى أن يكون جامعة حقيقية تنشر العلم الصحيح الذى يُعدّ الناشئين لأن يكونوا رجالاً عاملين ، ويؤهلهم لأن يفيدوا الأمة ببحوثهم وإرشادهم ومساعيهم فى بث العقائد الدينية الصحيحة والمعانى الأخلاقية السليمة ، ومكافحة الخرافات والقضاء على البدع والأباطيل ؛ وبالإجمال كان الشيخ ، كما قال بعض معاصريه ، « ينوى أن يجعل الأزهر منارة للعالم الاسلامى كله ، لا فى علوم الدين وحدها ، بل فى علوم الدنيا منضمة إليها ، معززه إياها فى قتال الحياة »

ووضع الأستاذ مشروعاً كاملاً لإصلاح الأزهر إصلاحاً معنويا ماديا ، قد نراه اليوم متواضعا كل التواضع ، ولكنه للأسف لم يستطع أن ينفذه لقيام العراقيل فى وجهه من كل صوب . ولسنا نجد هنا مجالا للخوض فى تفاصيل ما أثير حول الإصلاح من ضجة ، ولا ما دبّر للأستاذ الإمام من مكايد ودسائس . وحسبنا أن نذكر أنه فى يوم من أيام شهر مارس سنة ١٩٠٥ ذهب الصحفى الإنجليزى المستر « هارولد سپندر » لزيارة الشيخ محمد عبده فى الأزهر ، فرآه جالسا فى غرفته الصغيرة فى برج عال يشرف منه المطل على ذلك « السوق العلمى العجيب الواسع الأرجاء حيث يتلاقى الطلبة من أقصى بلاد الإسلام ... ويجلسون على بلاط متلاصقين ، وحيث تختلط اللغات واللهجات المتباينة بترتيل القرآن ودروس المعلمين . . . » وكان الأستاذ الإمام يشرف على ذلك كله « ويتنفس الصعداء من عمله الموحش الجليل » وهو يقول لهارولد سپندر : « ها أنذا كما ترونى وحيدا ليس لى من الأساتذة من يساعدنى ،

ولا من دعاة الخير من ينصرنى . أريد أن أعلّم فى هـذه الجامعة شيئاً نافعا ، بدلا من هذه الشروح العتيقة البالية الخالية من المعنى ، والتى هى أشد ضررا من كتبكم القديمة المؤلفة فى القرون الوسطى » ، (قال محمـد عبده ذلك وهو يشير إلى عمود من المجلدات الضخمة مستندا الى جدار الغرفة) ثم أخذ يتساءل : « ولـكن هل أجد من يساعدنى على ذلك ؟ و إنْ لم أجد فهل أفلح فيه وحدى؟ »

وقال المستر سپندر معلقا على هذا فى رثاء محمد عبده : « إن الشيخ لم يلبث أن جاءه الجواب عن هذه المسألة : فإنه أفرط فى بسالته بمحاولته ما كان يحاوله ، فإن الأرض فى غاية الصلابة ! على أنه ربما كانت هذه المحـاولة غير ضائعة كلها ؛ ومهما يكن الأمر فليس الأزهر أول مدرسة رجمت أنبياءها ! »

المفتى : فى ٣ يونيو سنة ١٨٩٩ صدر الأمر العالى بتعيين الشيخ محمد عبده مفتيا للديار المصرية ، فلم يجعل ذلك المنصب قاصرا على الإفتاء فيما يحال إليه من مسائل، على غرار من سلفوه ، بل نظر فيه الى ما هو أرفع و أبعد من ذلك : فوسّع من اختصاص المنصب ، وأضفى عليـه هيبة ونفوذا لم يكونا معهودين من قبلُ .

وفتاوى الأسـتاذ الإمام مشهورة ؛ وقد امتازت كلها ، كما قال الدكتور تشارلز آدمز ، بالميل الى التسامح واسـتقلال الرأى ، والبعد عن التقليد ، والملاءمة بين روح الإسلام ومطالب المدنية الحديثة ؛ وأشهرها فتوى تجيز للمسلم طعام أهل الـكتاب، والتزيى بزىّ غير المسلمين اذا اقتضته ظروف الحياة ،

أن يعيش بينهم ، وأخرى تُحِل للمسلمين إيداع أموالهم فى صندوق التوفير وأخذ الفائدة عليها .

ومن العسير على أبناء هذا العصر أن يتصوروا كيف كانت هذه الفتاوى فى حينها مثار أقاويل ومفتريات كثيرة لم يسلم من أذاها شخص المفتى وشرفه! ولكن الواقع أن بواعث الضجة التى أثيرت حول فتاوى الأستاذ الإمام هى عين بواعث الضجة التى أثيرت حول مشروعه لإصلاح الأزهر : دسائس دبّرها الخديو عباس الثانى لعزل الشيخ محمد عبده من الإفتاء بعد أن نجح فى حمله على الاستقالة من مجلس إدارة الأزهر . ذلك أن الشيخ أصبح بحكم منصبه فى الإفتاء عضواً فى المجلس الأعلى لديوان الأوقاف الذى أنشأه «لورد كرومر» للحد من تصرفات الخديو فى أموال الديوان، وكان الخديو قد انصرف فى الطور الثانى من عهده الى جمع الثروة دون أن يجد على تصرفاته رقيبا . لكن الأستاذ الإمام كان يتمسك طبعا بما يراه الحق وبما يرضى ضميره ؛ فكان ذلك منشأ استياء الخديو منه ، وسعيه لعرقلة مساعيه فى سبيل الإصلاح. ويروون أن « خليل باشا حمادة » قال للشيخ محمد عبده ذات يوم : « ياسيدى دع الخديو يتصرّف فى الأوقاف كما يشاء ولا تعارضه فيها ، ونحن نضمن لك أن يطلق يدك فى إصلاح الأزهر » . فكان جواب المفتى : « أنا أعلم هذا ولكن وجدانى ومراقبتى لله لا تمكننى من إقرار ما لا يبيحه الشرع ، والباطل لا يكون وسيلة للحق » .

من اليسير أن نفهم الآن لم ضجّ حزب المعارضين لهذه الفتاوى ، ولم اتخذها ذريعة للطعن على شخص محمد عبده والتشهير به ، ولم أخذ يشيع فى الناس أن المفتى وهابى ، وأنه زنديق ، لأنه لم يأخذ بآراء شيوخ المذاهب ، بل أخذ برأيه ، وأعلن بهـذا أنه « مجتهد لا مقلد لمذهب » ! « وحيث قد خرج عن التقليد المنصوص عليه فى أمر التولية ، فيرى العلماء أنه صار معزولا شرعا من وظيفة الإفتاء بمجرد هذا الخروج » . وهذه العبارة الأخيرة من تقرير « محمد بك أبى شادى » فى تفنيد الفتوى الترنسفالية هى بيت القصيد فى كل هذه الحملة الخديوية على المفتى .

ولم يكتف الخديو بذلك بل حرّض بعض المأجورين على أن يلفقوا صورة فتوغرافية للمفتى فى صحبـة بعض نساء الإفرنج ، ونشروها فى جريدة هزلية اسمها « حمارة منيتى » . وحمل أعوان الخديو تلك الصورة الى « لورد كرومر » محاولين أن يقنعوه بأن هذا فى عرف المسلمين ازدراء بالشيخ ومنصبه وأنه ينبغى إقالته مراعاةً لشعورهم ! فتبسم اللورد كرومر ساخرا منهم ، وأبدى ريبة فى صحة الصورة وقال لهم : « إن الشيخ المفتى يزورنا أحيانا ، وقد تحضر مجلسه « ليدى كرومر » وغيرها من عقائلنا ، فهل يصح أن يعدّ هذا إهانة له أو لنا ؟ » . وبذلك خاب مسعاهم عند كرومر .. وقد نشرت جريدتا « البابا جللو المصرى » و « الأرنب » صورة وقحة أثارت دهشة الجمهور ، وكانت سببا فى قضية جنائية حكم فيها القضاء على صاحبيهما بالسجن ، كما ذكر احمد شفيق باشا ،

« لانتها كهما حرمة الآداب فى حق فضيلة المفتى ، بواسطة إشهار رسمه وتصويره واقفا مع امرأة بلباس الرقص بحالة شائنة ، ثم القذف فى حقه بأنهما أسندا إليه الكفر وتحليل المحرمات ، وغير ذلك من الأمور الموجبة احتقاره عند أهل وطنه » .

وهابية وزندقة ! كان ذلك إذن أخف ما أصاب المجاهد المصلح من عبث العابثين وكيد الكائدين .

فى مجلس شورى القوانين : فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ عُيِّن الشيخ محمد عبده عضوا فى مجلس الشورى . وفى ذلك الحين كان بين الحكومة والمجلس خلاف فى الرأى : فلما حضر الأستاذ جعل همه السعى إلى التقريب بين وجهتى النظر و إزالة أسباب الخلاف ، فتم له ماأراد . وكان الشيخ ، كما قال زميله وصديقه حسن عبد الرازق باشا ، « واسطة العقد فى مجلس الشورى : فالتفتْ حوله القلوب ، وعرف الكل مكانته من قوة الحجة وسداد الرأى وطهارة النية . وكان إخوانه من رجال الشورى يلجأون إليه إذا اشتبه الأمر وخفى الصواب ، فينطق بالحكمة وفصل الخطاب . وكان مع هذا أسرع الناس قبولاً للحق وأوسعهم له صدرا . » . وقال فيه ذلك الزميل أيضا : « وكثيراً ما كنا نباحثه فى أمر اختلف النظر فيه بيننا وبينه ، فيرجع إلينا ، ويوافق رأيه رأينا . ولم نر مثله فى احترام الآراء مادام مصدرها شريفا لم يَشُبْهُ الغرض . ولقد كنا نختلف معه فى الرأى ويجاهر كل منا برأيه ، ويدعو

إليه اعتقادا منه أنه الحق، ولا نزال بعد ذلك أخلص الناس سرا وأصفاهم ودا » .

وختم حسن عبد الرازق باشا حديثه عن الأستاذ الإمام بقوله : « إنه لم يُعمَل عمل فى المجلس مدة وجوده إلاّ كان له فيه الرأى الرشيد والقول السديد : فما انتخبت لجنة فى مشروع إلا كان أول المنتخبين ، ولم يتألف وفد لمفاوضة الحكومة فى أمر إلّا كانت له الصدارة ، وهو فى كل ذلك عضو عامل وعليم متبصر » . وقد أجمع زملاء الشيخ فى مجلس الشورى على أنه كان « واسع الاطلاع نيّر البصيرة فى كل ضرب من ضروب الإصلاح » سواء كان قانونيا أو إداريا أو اقتصاديا .

لكن الأستاذ الإمام كان قبل كل شىء و بطبعه مربيا أخلاقيا: فلا بِدْع أن يكون أهم مايرمى إليه ـ كما قال حسن باشا عاصم ـ هو « تربية الرأى العام » فى مصر ، وتعويد ممثلى الأمة على دقة البحث ، والسمو عن الأشخاص والأغراض الخاصة إلى النظر فى الأمور العامة والمصالح الوطنية الكبرى .

فى الجمعية الخيرية الإسلامية : كان الأستاذ يرمى إلى تحقيق إصلاح اجتماعى ، يزكى فى أفراد الأمة روح الاعتماد على النفس من جهة، والتعاون على الخدمة العامة من جهة أخرى . فكان من المؤسسين للجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٨٩٢ ومن أبرز الشخصيات العاملة فيها . وجّه همته إليها : فكان يحض الأمراء والعظماء والسراة على المساهمة فيها ، وينفق وقته وجهده للعمل على اتساع نطاقها . ولما كانت الجمعية فى طفولتها ولم يكن قد قوى بعدُ ساعدها

وَشَى بها بعض ذوى الغايات لدى سلطة الاحتلال ، ونسبوا إليها أغراضاً سياسية خفية ، وقدموا فى ذلك مستندات مختومة بختم للجمعة مزوَّر : ففتشت إدارتها بقبة الغورى ، وكادت هذه التهمة تعصف بالجمعية ، وكان الشيخ غائباً عن مصر ، فلما عاد دافع عنها حتى أزال سوء الظن بها ، وأقنع صديقه لورد كرومر أنه لا شائبة للسياسة فيها .

وفى سنة ١٩٠٠ انتخب الشيخ رئيساً للجمعية ، فبقى فى رياستها حتى وفاته ، وزاد فى عهده إيرادها وممتلكاتها وعدد مدارسها وتلاميذها زيادة ملحوظة . ومما قام به الأستاذ أثناء رياسته لها أن دعا المصريين إلى التبرع لمنكوبى حريق « ميت غمر » الذى أصيب فيه نحو خمسة آلاف شخص أصبحوا بلا مأوى ولا قوت : فكان يطرق بنفسه أبواب الأغنياء ويطلب منهم التبرع للمنكوبين ، وقد استطاع أن يجمع لهذا الغرض ألوفا كثيرة من الجنيهات . ويروى أن « حسن باشا عاصم » رغب إليه أن يستعمل بعض ما جمعه للمنكوبين إعانةً لمدارس الجمعية فأبى وقال : « إن ما جُمع لشىء وجب إنفاقه فيه . وإننا نفترص النكبات والحوادث المؤلمة لنعلّم الناس البذل فى سبيل البر ، ومتى اعتادوا البذل فى بعضها هان عليهم البذل فى سائرها » .

وعنيت الجمعية الخيرية بإنشاء مدارس خاصة يتربى فيها أبناء الشعب تربية أخلاقية عملية ، قوامها التهذيب الروحى والاعتماد على النفس فى تحصيل المعاش . وقد بيّن الأستاذ فى خطبه كل عام أن مدارس الجمعية لا تقصد أن تعدّ تلاميذها

لأن يكونوا موظفين فى الحكومة ، بل تريد أن تمحو من النفوس ذلك الوهم الذى جعلهم يحصرون قيمة التعليم فى « الشهادات » الدراسية ، والشهادات فى الوظائف الحكومية . ومن أجل ذلك اتجهت عناية الجمعية إلى أن تعطى فى مدارسها من التربية والتعليم القدر اللازم لتكوين ناشئين يحافظون على الصحيح من عقائد دينهم ، و يأخذون بالجميل من آداب أمتهم ، و يعاملون الناس بالصدق والاستقامة والأمانة ، و يشبّون على حب العمل والرغبة فى تجويده و إتقانه . وقد كان الأستاذ حريصا فى كل فرصة على أن يبيّن للأغنياء وأهل الطبقات الناعمة وجهَ الحاجة إلى تربية أبناء الفقراء وأهل الطبقات العاملة ، فكان يقول إن الأمة لا تحيا حياة راقية متمدنة حقا إلا إذا ارتفع مستوى الحياة لدى السواد الأعظم فيها : أليس هؤلاء هم الذين يقومون بمعظم الشؤون ، و يمارسون أكثر الحرف التى لا يستغنى عنها الخواص ؟ وكيف يهنأ لأبناء الذوات عيش إذا كان أبناء الشعب فاسدى التربية فاقدى الأخلاق ؟

كذلك عمل الأستاذ الإمام ، من طريق الجمعية الخيرية الإسلامية ، على « تعويد المسلمين على الاجتماع لأجل التعاون ، و إشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحسان على الفقراء » ، فكان صوته أول صوت ارتفع فى مصر مناديا بوجوب العمل على استتباب السلام بين الطبقات ، والاتجاه إلى تحقيق مبادئ العدالة الاجتماعية التى كثر التحدث عنها فى أيامنا هذه .

دروس الأستاذ الإمام : كتب الشيخ « أحمد المحمصانى » أحد

تلاميذ الإمام فى سوريا يقول : إن الأستاذ لاحظ فى أول درس له بدار الإفتاء أن « انحطاط العلم عند المسلمين بدأ منذ انقطع العلماء عن العامة وفقدت رابطتهم بهم ، فأخذوا يشتغلون بالعلم لمجادلة بعضهم ولمغالبتهم لدى الحكام ، فصارت العلوم عبارة عن مناقشات لفظية وصرف الزمن فى لاشىء ... » .

مناقشات لفظية ، وصرف الزمن فى لاشىء !

ذلك صميم الطريقة الأزهرية التى كانت سائدة فى التدريس أيام الشيخ محمد عبده . ومدار تلك الطريقة قراءة كتب معينة فى موضوعات معينة ، كل كتاب منها لثلاثة أو أربعة من المؤلفين : يقرأون «المتن» لمؤلف و «الشرح» لمؤلف آخر ، و «الحاشية» لمؤلف ثالث ، وقد يقرأون «تقريرا» لمؤلف رابع ! وكل منها يفسر ما قبله ، ويذكر ما تحتمله عبارته من المعانى ، وما قد يرد عليها من الاعتراضات ، وما يدفع الاعتراض من الأجوبة والاحتمالات « التى تعدّ كثرتها آية النبوغ فى التحقيق » ! حتى كان « لا يكاد يتجرأ عالم على قراءة كتاب من كتب الجهابذة المتقدمين التى لم تشرح ، ولم تعلق عليها الحواشى » ؛ وكان الأزهريون يسمّون الكتب الخالية من الشروح والحواشى والتقارير كتبا « غير مخدومة » !

لكن الأستاذ الإمام كان ، كما رأينا ، شديد الكره لتلك الطريقة التى كان موقنا بعقمها وجدبها ومنافاتها للعقل الصريح . وقد عرفنا كيف سعى إلى إبطالها من التعليم فى الأزهر ، وكيف جاهد الأزهريين عليها جهادا متصلا

فلم يوفّق إلى ما أراد . وقد قال له الشيخ البحيرى مرة فى مجلس إدارة الأزهر مدافعا عنها . « إننا نعلّم الطلاب كما تعلمنا » ؛ فقال الأستاذ : « وهـذا الذى أخاف منـه » . قال البحيرى مستنـكرا : « ألم تتعلم أنت فى الأزهر ، وقد بلغتَ ما بلغت من مراقى العلم ، وصرتَ فيه العلم الفرد ؟ » ؛ فأجاب الإمام : « إنْ كان لى حظ من العـلم الصحيح الذى تذكر ، فإننى لم أحصله إلّا بعد أن مكثت عشر سـنين أكنس من دماغى ما علق به من وساخة الأزهر ! وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة ... » .

ورأى الأستاذ أن يتولى التعليم بنفسه فى الأزهر ؛ وقد وصف رشيد رضا منهج الشيخ فى دروسه فقال : « كان يقرأ عبارة متن رسالة التوحيد ، والبصائر ، وأسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، ويبيّن معناها بعبارة مختصرة مفيدة قلمـا يحتاج سامعها إلى سؤال . فإن استشكل مستشكل وسأل سائل أجيب بمـا يقنعه بالاختصار ، فى قول فاصل ليس فيـه شك ولا احتمال » . وكانت دروس الأستاذ « كالغيث » ، كما يقول الشيخ محمد مصطفى المراغى ؛ وكانت « مثلا عاليا فى طريقة الإلقاء والتفهيم ، وفى العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة إلى القلوب . وكانت دائرة معارف يجد اللغوى فيهـا حاجته ، والفقيه رغبته ، والمتكلم بغيته ، ويجد علماء الاجتماع فيهـا تطبيق آى القرآن على معارفهم » .

وكان يحضر دروس الأستاذ الـكثيرون من النابهين من الأساتذة والأدباء

والصحفيين والموظفين أمثال الشنقيطى ، وسعد زغلول ، وأحمد تيمور ، وحفنى ناصف ، ومحمد صالح ، ومصطفى المنفلوطى ، وعبد الرحمن البرقوقى ، وعبد الوهاب النجار ومصطفى عبد الرازق وغيرهم . وقد تتلمذ على الأستاذ الإمام فى مصر كثير من الشرقيين نذكر منهم الشيخ اسماعيل الحافظ من طرابلس الشام ، والشيخ أحمد المحمصانى من بيروت ، والشيخ الترمانينى من حلب ، كما كان يحضر دروسه بعض المستشرقين أمثال الأستاذ « ادوارد براوْن » والمستر « ولْفرد بلنْت » .

وكان درس التفسير أحفل الدروس بالحاضرين من علية القوم ، ومنهم كثيرون من المسيحيين . وكثيرا ما كان الرواق العباسى يضيق بالمستمعين ، فكان منهم من يقفون ساعة الدرس حين لا يجدون مكانا للجلوس . وقد تفضل الشيخ إبراهيم الترماتينى — الذى حضر على الإمام فى الأزهر — فبعث إلينا وصفا دقيقا لتلك الدروس نقتبس منه ما يلى : « كانت توضع للأستاذ الإمام منصة فى وسط الرواق ، فيجلس عليها رحمه الله ، ويستقبل القبلة ، ويوضع بجانب تلك المنصة كرسى مرتفع فوقه فانوس كبير ، داخله أربع شمعات ، والقبلة منوّرة بكثير من نور الغاز الذى يجرى فى أنابيب خاصة ، وكان الجامع الأزهر ينور به .. » . وقال بعد أن وصف الحاضرين : « وترى الجميع كأنّ على رءوسهم الطير فلا تسمع لهم صوتا ولا نحنحة ولا همسا . وكلهم أذن واعية وأعين محدقة بالشيخ : فاذا عرض لأحدهم إشكال فلا يجرأ على

سؤاله فى الحال ، وإنما يؤخره إلى ما بعد انتهاء الدرس ، فإن الشيخ يجلس بعد الدرس برهة قصيرة ليجيب على ما يرد إليه من الأسئلة ... » « أما كيفية إلقائه فلا يحدر فى كلامه ولا يسرع فى قراءته ، بل كان كلامه مقطعا جملة جملة ، بلهجة فصيحة و بلاغة نادرة ، بحيث يتسنى للكاتب البطىء أن يكتب عليه ما يسمعه منه بدون تصحيح . وكان جهورى الصوت ... وكان أثناء قراءته يشير بسبابته اليمنى ، فيضم باقى أصابعه إلى كفه ، ويبقى السبابة منصوبة ، ثم يقبل بيده اليمنى ويعيدها ، كأنه يستعين بها على الإلقاء ... » « وكان جديا فى قراءته ، يعلوه وقار وهيبة ، فاذا مرّت به آية رحمة ألان كلامه ، وإذا مرّت آية عذاب ووعيد ارتفع صوته وزادت هيبته . وكان أديبا فى كلامه وخطابه نزيها فى حديثه عن كل ما فيه بذاءة أو لفظ مستهجن ... » وقد تحدث مصطفى عبد الرازق باشا عن دروس الأستاذ الإمام فقال : « كنت طالبا من صغار الطلاب أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر ، وكان أساتذتنا ، عفى الله عنهم ، لا يفتأون يذمون لنا الشيخ ويمثلونه خطرا على الدين داهما ، فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة ، وكنت أفرّ بدينى من أن ألقى الأستاذ أو أستمع إلى دروسه مع أنه صديق لوالدى ! وحضرت درسه مرة لأشهد كيف تشيه وجوه الملحدين وتشيه معها عقولهم وقلوبهم . فلما رأيت الرجل بالرواق العباسى ، وسمعته يفسر كتاب الله قلت منذ ذلك اليوم : اللهم إنْ كان هذا إلحادا فأنا أول الملحدين .

إنْ كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافض »

على أن دروس الإمام لم تكن تخلو من دعابة رقيقة يرسلها ترويحا للنفوس من حين إلى حين . كان الأستاذ يلقى درسه ذات مساء فى الأزهر ، فدخلت الرواق فتاة فى نحو الثانية عشرة من عمرها ، وظلت تتخطى رقاب الجالسين حتى وصلت إلى مكان والدها ، فأسرّت إليه كلمة وخرجت . وقد استرعت جرأتها التفات الناس ، فتطلعوا إليها مستغربين ، فما كان من الأستاذ إلّا أن سكت هنيهة ثم قال : « دعوها حرة فلعلها المرأة الجديدة » ! فضحك الحاضرون لهذه التورية اللطيفة ، وأدركوا ما تنطوى عليه من الإشارة الى الموضوع الذى شغل اهتمام الرأى العام فى مصر حينذاك بعد ظهور كتاب « المرأة الجديدة » لقاسم بك أمين .

وقد رويت عن الأستاذ نوادر كثيرة أخرى تدل على أنه كان إذا شعر بتفاهة الحديث أو سخافة السؤال أرسل النكتة مخلوطة بشىء من السخرية على سبيل الزجر والتأنيب . رُوى أن بعض المجاورين أكثر من الأسئلة الفارغة فى درس التفسير ، ولما أبدى الأستاذ رأيا طريفا فى تفسير بعض الآيات ، قال ذلك المجاور : « إنّ ما قلته لا يوافق عليه الجمل » (يعنى بالجمل أحد المؤلفين ممن كتبوا الحواشى على تفسير الجلالين) .

فقال الأستاذ على الفور : « إننى أقرر ما يدل عليه المعنى الجليل والكلام البليغ ، ولا يعنينى أوافق عليه الجمل أو الحمار » !

ومن هذا القبيل ما رواه لطفى السيد باشا فى بعض أحاديثه عن الأستاذ

الإمام . قال : إن الإمام لما عاد من رحلته فى السودان سنة ١٩٠٥ نزل بالمنيا، فحضر للسلام عليه رجال القضاء الأهلى والشرعى ووجوه البلد . فلما احتشد الجمع قال أحد العلماء من رجال المحكمة الشرعية : « إن كثيرا من النصارى يدخلون فى الإسلام فتضاعف بذلك شغلنا » ؛ فسأله الإمام : « فبم تشتغل أيها الشيخ ؟ » فأجاب : « نعلمهم أركان الدين » ؛ فقال الإمام : « يكفى أن تقول له : صلّ وصم وزكّ وحج » ؛ فأضاف الشيخ : « ولا بد أن نعلمه الوضوء ؛ فقال الإمام : « قل له اغسل وجهك ويديك الى مرفقيك ، وامسح رأسك ، واغسل رجليك » ؛ فقال الشيخ : « ذلك لا يكفى ولا بد أن نعلّمه حدود الوجه من أين يبتدئ وإلى أين ينتهى » ؛ فقال الأستاذ الإمام بصوته الجهير فى شىء من الحدة : « سبحان الله ياسى الشيخ ! قل له يغسل وجهه ! كل إنسان يعرف حدود وجهه من غير حاجة الى مسّاح ! »

الإمام والدفاع عن الاسلام : أشهر مواقف الإمام فى الدفاع عن الإسلام اثنان : أحدهما رده على المسيو « هانوتو » وزير خارجية فرنسا، فى موضوع الإسلام والعقائد السامية والآرية ومايتصل منهما بالإسلام والمسيحية . والثانى ردّه على مجلة الجامعة، فى فلسفة ابن رشد والموازنة بين الإسلام والنصرانية من حيث التسامح الدينى وتأييد العلم والمدنية . ويعوزنا المكان للخوض فى تفاصيل هاتين المناظرتين المشهورتين ، فنكتفى بما قاله الدكتور تشارلز أدمز من أن رد الأستاذ الإمام على الخصمين كان ردا « قويا مفحما ، أذاع شهرته

فى العالم الإسلامى وجعله أقدر المحدثين فى الدفاع عن الإسلام » . ولا بأس من أن نذكر بهذا المقام أن الأستاذ الإمام نشر رده على هانوتو غفلا من توقيعه، ولكن أكثر أهل العلم والأدب فى مصر جزموا بأنه هو كاتبه وأنه لا يقدر عليه أحد غيره . وقد قال له بعضهم هذا فى دار الإفتاء، وكان فى مجلسه بعض الأدباء والفضلاء ، فتوقعوا أن يسره ذلك الثناء، فاذا به يفجأهم ويقول ممتعضا إنه لا يسوءه شىء كما يسوءه هذا القول، لما يتضمنه من ذم قومه والحكم عليهم بالجهل والعجز عن مثل ذلك الرد الذى يجب أن يكون ميسورا لمن كان لهم حظ من الثقافة المتوسطة . ثم قال : « ومن نكد الدنيا أن يعجز الإنسان عن الاستخفاء فى هذا البلد الكبير إذا رأى من المصلحة أن يظهر أفكاره دون شخصه » .

الدعوة إلى إنشاء الجامعة المصرية : إذا كانت الأجيال الحاضرة تذكر للأستاذ الإمام عمله فى ترقية الصحافة وجهاده لاستقلال الوطن وبلاءه فى إصلاح الدين ودعوته إلى تحرير الفكر من قيود التقليد ، فمن الإنصاف ألاّ تنسى هذه الأجيال نصيبه فى العمل لإنشاء جامعة مصرية تكون مهمتها ، كما قال أحد الكتاب الفرنسيين ، أن « تقوم على تعليم العلوم وفقا للمناهج الحديثة ، وتساهم فى تجديد الحضارة العربية القديمة ، بالدأب على الاقتباس من النتائج التى توصل إليها علماء الغرب فى العلوم والآداب والفنون » . وقد كتب الأستاذ الإمام نفسه فى « وصيته السياسية » التى نشرها « المسيو

دوجرڤيل » سنة ١٩٠٥ فى كتاب له عن مصر الحديثة فقال : « إذا نظرنا إلى التعليم الذى تنشره الحكومة من حيث قيمته ، فنحن مضطرون إلى أن نلاحظ أنه لا يكاد يقدر إلّا على تكوين رجل محترف بحرفة يكتسب بها عيشه . ومن المستحيل أن يستطيع هذا التعليم تكوين عالم أو كاتب أو فيلسوف ، فضلا عن تكوين نابغة . وكل ما لدينا من المدارس التى تمثّل التعليم العالى فى مصر إنما هى مدرسة الحقوق والطب والهندسة . وأما بقية الفروع التى يتكوّن منها العلم الإنسانى ، فقد ينال منها المصرى صورا سطحية فى المدارس الإعدادية ، ويكاد يكون من المستحيل أن يتقن منها شيئا ، وهو فى الغالب مكره على أن يجهلها جهلا تاما : وذلك شأن علم الاجتماع وفروعه التاريخية والخلقية والاقتصادية . وذلك شأن الفلسفة القديمة والحديثة ، والآداب العربية والأوروبية ، والفنون الجميلة أيضا — كل ذلك مجهول لا يدرس فى مدرسة مصرية . والنتيجة أن فى مصر قضاة ومحامين وأطباء ومهندسين تختلف كفاءتهم قوة وضعفا فى احتراف حرفهم ؛ ولكنك لا ترى فى الطبقة المتعلمة الرجل الباحث ولا المفكر ولا الفيلسوف ولا العالم ، لا ترى الرجل ذا العقل الواسع والنفس العالية والشعور الكريم ، ذلك الذى يرى حياته كلها فى مثل أعلى يطمع فيه ويسمو إليه ... » .

إذن فقد كان لمحمد عبده فضل التفكير فى إنشاء « الجامعة المصرية » إلى جانب « الجامعة الأزهرية » . وهذا الفضل قد شهد به بعد وفاة الإمام

المسيو « جرمان مارتان » وسجله فى مقال له فى « مجلة العالم الإسلامى » التى تصدر فى باريس . بل لقد ذهب محمد عبده من التفكير إلى التنفيذ : فبذل جهوداً كثيرة حتى أقنع سريا من سراة المصريين وهو أحمد المنشاوى باشا ، بأن يوقف لبناء الجامعة قطعة أرض فى ضواحى القاهرة . وشرع المنشاوى باشا فى إعداد العدة لذلك، ولكنه قضى نحبه فوقف المشروع .

ومات الشيخ محمد عبده فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ . ولم يمض إلا قليل من الزمن حتى أنشئت « جامعة الشعب » ثم « الجامعة المصرية » صدى لأمنية الأستاذ الإمام .

فى السّفر

أثر الأسفار فى نفس الامام : كان الشيخ ممن يعتقدون بأن الكتب وحدها لا تكفى فى معرفة الناس والحياة ، بل كان يرى أنه لا بد أن يكمل الإنسان ثقافته بالاطلاع على ذلك « الكتاب الكبير كتاب العالم » كما يقول الفيلسوف الفرنسى ديكارت . لهذا كان الشيخ حريصاً على أن يقوم كل عام ببعض الرحلات خارج بلاده ، وكان يقول عند ما يريد السفر الى أوروبا : « إننى أذهب لأجدد نفسى » . وقد زار الإمام الكثير من بلاد أوروبا وإفريقية وآسيا، للوقوف على أحوالها وفهم روح أممها . وتحدث عن أثر تلك الأسفار فى نفسه فقال : « ما من مرة أذهب الى أوربا إلاّ ويتجدد عندى الأمل فى تغيير حال المسلمين الى خير منها ، وذلك بإصلاح ما أفسدوا من دينهم ، وتشحيذ عزائمهم إلى معرفة شؤونهم ، وامتلاك ناصيتها بأيديهم دون إفراط ظلمتهم . وهذه الآمال وإن كانت تضعف فى نفسى عند ما أعود الى ديارى ـ لكثرة ما ألاقى من العنت وشدة ما أصادف من المصاعب،

وسوء ما أرى من انصراف المسلمين عن النظر فى منافعهم ، وشدة عداوتهم لأنفسهم ، وقوة رغبتهم فى تمكين ظالميهم من رقابهم ، وحبهم فى الاستعباد لهم لغير سبب معقول ـ لكنى متى عدت إلى أوروبا ومكثت فيها شهراً أو شهرين تعود الىّ تلك الآمال ، ويسهل علىّ تناول ما كنت أعدّه من المحال . . . »

* * *

حديث مع « هربرت سپنسر » : كان الأستاذ الإمام شديد الإعجاب بالفيلسوف الإنجليزى هربرت سپنسر ، فكان دائم النظر فى مؤلفاته يقرأها فى ترجماتها الفرنسية ، وأعجبه منها كتابه فى « التربية » فنقله الى العربية ، وأخيراً رغب فى زيارته ، وكان « سپنسر » إذ ذاك شيخاً كبيراً مريضاً ممتنعاً عن مقابلة الناس ، بل جافياً فى مقابلة المعجبين به ، غير أن همة المفتى قد ذللت كل هذه الصعاب ، ورضى « سپنسر » أن يقابل الشيخ المصرى الذى قطع من أجل ذلك اللقاء أجواز البحار . ووصل محمد عبده الى انجلترا فى صيف سنة ١٩٠٣ ، فأرسل سپنسر سكرتيره لملاقاته على محطة « برايتون » وقصد الشيخ مع صديقه ولْفرد بلَنْت الى « پرسيفال تراس » حيث كان الفيلسوف فى انتظاره . وياله من اجتماع باهر تلاقى فيه الشرق والغرب ! تكلم « سپنسر » مع محمد عبده بالفرنسية أول الأمر ، ثم عدل عنها الى الإنجليزية ، وكان يود أن يطول الحديث ، لو لا أنه كان ممنوعاً من الكلام

أكثر من عشر دقائق فى الجلسة الواحدة . وبدأ الفيلسوف الحديث فسأل المفتى : « هل زرت انجلترا قبل الآن ؟ » فأجاب محمد عبده : « نعم زرتها منذ عشرين سنة »؛ فقال سپنسر : « وكيف وجدت الفرق بين الإنجليز اليوم والإنجليز منذ عشرين سنة ؟ » فأجاب محمد عبده : « إننى زرت هذه البلاد فى المرة الأولى لغرض سياسى خاص ، وهو البحث مع رجال السياسة فى مسألة مصر والسودان عقب الاحتلال البريطانى ، وأقمت أياماً قليلة لم يتعدّ عملى فيها ما جئت لأجله ، وقد ألممت بها الآن منذ أيام ، فلم أدرس حالة الناس . . . وإنما يجب أن آخذ عنكم ذلك » ؛ فقال سپنسر : « إن الحق قد اختفى من مجال السياسة الحديثة فى أوروبا ، وإن حرب الترنسفال اعتداء على الإنسانية . وسيأتى زمن تسيطر فيه القوة على العالم ؛ وستنشب مرة أخرى حرب عامة من أجل السيادة تستعمل فيها جميع ضروب الوحشية ... » .

وبعد الغداء انتقل سپنسر إلى الحديث فى الفلسفة الإلهية فسأل المفتى : « ماذا يقول علماء الإسلام فى الخالق ؟ هل هو داخل العالم أو خارجه ؟ » فأجاب المفتى : « علماء الأثر يقولون : إن الله تعالى فوق كل شىء ، بائن من العالم ، والمتكلمون يقولون : إنه لا داخل العالم ولا خارجه . والصوفية القائلون بوحدة الوجود يقولون : إن كل شىء فى العالم مظهر من مظاهر وجوده . . » . ثم بيّن الأستاذ الإمام كيف أن المتصوفة الإسلاميين ، خلافاً لأهل السنة ، يرون الله وجوداً ولا يرونه شخصاً . . . وقد لاحظ المستر بلنت أن سپنسر

سُرّ بهذه التفرقة بين « الوجود » و «الشخص»، ورآها تفرقة طريفة ، وإنْ كانت دقيقة على الأفهام ، ولم يتيسر التوسع فى بسطها مراعاة لحال سپنسر الصحية . . .

وانقضت زيارة الشيخ المصرى للفيلسوف الإنجليزى. ولكن يظهر أنها على قصر أمدها تركت فى نفس الأستاذ الإمام أثراً عميقاً، فكتب فى مذكرة جيب له تعقيباً عليها :

« ما ذا حركت منى كلمة الفيلسوف: « الحق للقوة . . » ؟ « جاءت منه مصحوبة بشعاع الدليل ، فأثارت حرارة وهاجت فكرا . لو جاءت من ثرثار غيره كانت تأتى مقتولة ببرد التقليد ، فكانت تكون جيفة تعافها النفس ، فلا تحرك إلا اشمئزازاً وغثياناً . . » . « هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد فى راحة الناس . . . أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الإنسان ويعرضوها عليه حتى يعرفها فيعود إليها . هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان من الحديد اللامع المضىء ، أفلا يتيسر لهم أن يجلوا ذلك الصدأ الذى غشى الفطرة الإنسانية ، ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحى ؟ حار الفيلسوف فى حال أوروبا وأظهر عجزه مع قوة العلم ، فأين الدواء ؟

الرجوع الى الدين . . الدين هو الذى كشف الطبيعة الإنسانية وعرفها الى أربابها فى كل زمان ، لكنهم يعودون فيجهلونها ».

شخصية الأستاذ الإمام

لم يتسع لنا المجال ، فى هـذا الكتاب الصغير ، لبيان الوجوه المتعددة لآثار الأستاذ الإمام وأعماله فى مصر وخارج مصر . والآن يضيق المجال أيضا عن تنـاول الجوانب الكثيرة الطريفة من تلك الشخصية المعقدة القوية التى نشأت أولًا فى نطاق ضيق ، نطاق الدين واللغة والفلسفة ، ولكنها ما لبثت أن جاوزته وامتد نشاطها إلى دوائر أوسع ، فاتصلت بالأحداث الاجتماعية والسياسية والأدبية اتصالا بلغ من بُعْدِ مداه أن أثار الحماسة والإعجاب عند فريق من الناس ، وأثار الخصومة والأحقاد عند فريق آخر : ولا عجب فإن من النابغين من يهزّ الآراء والمعتقدات هزا قويا عنيفا يعسر معه على الناس أن يحكموا عليه فى عصره منصفين .

أبرز صفات الأستاذ الإمام هو ذلك النشاط الروحى الزاخر ، وتلك العزيمة التى لم تكلّ عن العمل يوما إلى أن أصبح الرجل شيخا اقترب من الستين ، فكان كما قال قاسم بك أمين : « يطالع ، ويتعلم ، ويعلِّم ، ويفتى ، ويجلس

فى جلسات مجلس شورى القوانين ، ومجلس الأوقاف الأعلى ، ويترأس على الجمعية الخيرية الإسلامية ، ويضع المشروعات للأزهر ، وللمحاكم الشرعية ، ويمتحن طلبة العلم وتلامذة المدارس ، ويؤلف الرسائل الدينية ، وينشر المقالات الفلسفية ، ويدافع عن الدين إذا طعن عدو عليه ، ويراسل علماء المسلمين فى جميع الأقطار التى يسكنونها ، ويتخابر مع رجال الحكومة لتنفيذ مقاصده . وكان مع كل ذلك يجد وقتا ليزور أصحابه ويشاركهم فى جميع أفراحهم وأحزانهم » .

وذلك الجهد الفياض الموصول هو الذى ألقى على سيرة محمد عبده طابعا خاصا ، وأسبغ على حياته جِدّةً ميّزتها من المألوف فى الشرق من حياة الأشياخ المنعزلين ، حتى كان الكثيرون ، فيما روى قاسم أمين ، يعترضون على الشيخ قائلين : « ما هذا الشيخ الذى يتكلم باللغة الفرنساوية ، ويسيح فى بلاد الإفرنج ، ويترجم مؤلفاتهم ، وينقل عن فلاسفتهم ، ويباحث علماءهم ، ويفتى بما لم يقل به أحد من المتقدمين ؛ ويشترك فى الجمعيات الخيرية ، ويجمع المال للفقراء والمنكوبين ؟ إن كان من أهل الدين ، فليقض حياته بين الجامع والبيت . وإنْ كان من رجال الدنيا ، فإنّا نراه يعمل فيها وحده أكثر من جميع الناس ! » .

وكان محمد عبده فوق هذا كله زعيم أفكار كما قال « هارولد سپنْدر » :

« كان فى سنى نفيه الطويل دائم التفكير فى عيوب الشرق . ورجع من منفاه مملوءً حماسةً جديدة . وكان يريد أن يؤثر فى نفوس الناس بما هو أدخل فيها من السياسة : فكانت سياسته عبارةً عن دعوةٍ إلى الحرب الفكرية » .

وكان مجددا دينيا : أراد أن يبسّط الإسلام ، وأن يرده إلى ينابيعه الأولى ، وأن ينحو به فى الوقت نفسه منحى روحيا عقليا ، وأن يخلصه مما علق به من شوائب مادية وآثار خارجية ، وأن يبث فى نفوس سائر المسلمين شعورا دينيا عاليا وفكرا أخلاقيا نقيا .

وكان وطنيا مصريا يفيض وجدانه بقوميته ، وتتأجج رغبته فى العمل لتحقيق الخير لبلاده ، ويريد أن يؤثر فى المجتمع المصرى أثرا فعّالا قويا .

وكان فى حياته فيلسوفا ينزع إلى التأمل والروية فيما يعرض له من الأمور ، ويرفض الأحكام المشهورة ، والآراء التى تفرضها السلطات ، ولا يأبه بذلك البرهان الثقيل « برهان الحضور » أو الأمر الواقع الذى يخضع له الناس عادة أكثر مما ينبغى .

ولكن الشيخ محمد عبده كان رجلا عظيما ، قبل أن يكون مصلحا ووطنيا وفيلسوفا : كان رجلا عظيما لأنه عاش لأمته ورسالته ، أكثر مما عاش لنفسه وأسرته ، ولأنه وصل إلى « مقام الإمامة بأوسع معناها » كما قال قاسم أمين ، ذلك المقام الذى « مكّنه من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها ، ويحركها نحو

الخطة التى رسمها ، و يسوقها إلى طريق المستقبل الذى هيأه لها » ؛ ولم يستمد مقامه ذلك « من منصب عال فى الحكومة ، ولا من رتبة رفيعة ، ولا من ثروة طائلة ، ولا من نسبة إلى بيت قديم ، ولا من شىء آخر من ألقاب الشرف المعروفة التى اخترعت لتحل محل شرف النفس » ، إنما هو مقام اكتسبه بفضائله الشخصية العالية ونفسه الجميلة الممتازة .

ومن أظهر ما يستوقفنا فى شخصية محمد عبده شهامة الخلق وشجاعة الرأى إلى درجة لم تكن معهودة ، حتى قالت عنه جريدة « المقطم » يوم تأبينه : « كان فى قلب بلاد الشرق ، بلاد الخوف والرهبة والاستبداد ، رجلا جرىء الفؤاد حر الضمير ، يجاهر برأيه و يثبت عليه ، ولا يخشى بأس متسلط ، ولا يهاب صولة كبير . وقد جرّ عليه ثباته على رأيه وجراءته وقلة خوفه ورهبته أهوالاً كثيرة ومصايب ومحنا عديدة » .

حدث أن جاء الأستاذَ خطابٌ من مجهول يهدده فيه بالقتل ؛ فقرأه وابتسم ، ورمى به غير عابئ بالتهديد . وركب ذات يوم فى عربته مع الشاعر حافظ بك ابراهيم إلى عين شمس فقال له حافظ : « لو أننا فوجئنا الآن بهذا الذى أرسل إليك تهديده فماذا يكون موقفك يا مولاى ؟ » فأجاب على الفور : « إنى لأهنئ نفسى إذا وجدت فى مصر من يستطيع أن يقول فى وجهى : أخطأت ، فكيف بى إذا وجدت من يريد أن يقتلنى » ! .

وحدث أيضا أن أرسل الخديو «عباس الثانى» إلى شيخ الأزهر يأمره شفويا بأن يوجّه كسوة تشريف من الدرجة الأولى إلى شيخ لم يكن من كبار العلماء ، وإنما كان إمامه الخاص . ولكن ذلك الأمر لم ينفذ لمخالفته لقرار مجلس إدارة الأزهر ؛ فاستاء الخديو استياء شديداً ، وانتظر حتى اجتمع عنده علماء الأزهر فى إحدى التشريفات الخديوية ، فقال لشيخ الأزهر بلهجة الاستنكار : « ألم آمرك بتوجيه كسوة فلان إلى فلان ؟ » ؛ فحاول الشيخ الاعتذار متلعثما ؛ فما كان من محمد عبده إلا أن نهض من نفسه وقال بصوت الشجاع الذى لا يهاب قول الحق : « إن الذى قرره مجلس إدارة الأزهر هو التنفيذ لأمر أفندينا ، لأنه مقتضى ما نص عليه القانون المتوج باسم سموه . وأما الأوامر الشفوية فلا نعرفها . فاذا شاء أفندينا أن تكون كساوى التشريف العلمية بمقتضى إرادته فليصدر بذلك قانونا ينسخ هذا القانون أو مادة قانونية نصها : « كساوى التشريف للعلماء توجه بأمر منا » . فما سمع سموه هذا الجواب بمحضر العلماء حتى احمرّ وجهه من شدة الغضب ، ووقف إيذانا للحاضرين بالانصراف .

ونحن لا نرى فى مثل هذه الشجاعة فى إبداء الرأى ونصرة الحق تحديا ولا صلفا ، ولكنها صراحة نفس واستقامة ضمير واعتزاز بالكرامة عند رجل يأبى أن يتهاون فى أداء واجبه مهما تكن الظروف والنتائج .

كان الأستاذ الإمام خيّرا ، كريم النفس ، مفطورا على الإحسان ، يعطى من ماله بغير حساب ، ويحث على الإنفاق فى وجوه البر ، ويسرع إلى نجدة الناس فى الملمات . شهد بذلك جميع من عرفوه : فقال قاسم بك أمين إنه « كان ملجأ الفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين والمصابين بأى مصيبة » ، وذكر مصطفى عبد الرازق باشا أن الإمام « كانت له معونات لمن نكبهم الدهر من أهل المروءات يبالغ فى كتمانها ، وفى التلطف لإزالة الوحشة عن ذى الحاجة الكريم . كان يعطى إذا لجأ إليه مكروب كل ما يملكه ليفرج كربته غير حاسب لغدٍ حسابا . وكانت تخلو يده أحيانا ، فلا يجد ما ينفقه فى البر ، فيقصد إلى من يتوسم الخير فيهم من أهل اليسار ، ويدُلّهم على المحتاج وحاجته ، ثم يترك المحسن حُراً فى إيصال المعروف إلى مستحقه . وكان يحسن إلى أهل المواهب الذين قعد الدهر بهم إحسانا يكمل مواهبهم ... ويتخير لإحسانه وسائل تحيي هممهم وتنهض بهم من كبواتهم حتى يزدهروا بعد ذبول » . وأكثر من هذا أنه كان يسعى لصاحب الحاجة ، وهو يعلم أنه أساء إليه وقدح فيه ، وتحالف مع خصومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه يوما مدة حياته . روى أن شاباً أزهريا رقيق الحال كان يلوذ بالأستاذ الإمام ، فأراد الأستاذ أن يعينه على أمره فجاءه ذات يوم وقال له : « إنى أريد لك الخير يا ولدى . وقد فكرتُ أنك تستطيع أن تنال منه

شيئا إذا طعنتَ عليّ وانضممت إلى خصومى » . فاعترض الطالب قائلا : « معاذ الله يا مولاى ! إن هذا محال »؛ فقال الإمام : « لا . ليس هذا بمحال ؛ وإنى أنصحك جادا أن تشرع منذ اليوم فى كتابة المقالات بتوقيعك ، فتملأها طعنا علىّ ومهاجمة لى . عندئذ يلتفت إليك خصومى — وهم أقوياء وكثيرون — فيستميلونك ويساعدونك » . وعمل الشاب بهذه النصيحة ، وأخذ يهاجم الأستاذ ، فعرفه الخصوم ومنحوه منصباً ذا بال . وكان الشيخ محمد عبده يروى لأصدقائه هذه القصة ، ويعلّق عليها ضاحكا وهو يقول : « والعجيب أن صاحبنا هذا بعد أن اتبع نصيحتى ونال بغيته ، لبث يهاجمنى بحرارة كأنه يؤمن بما يقول ! » .

ومن المعلوم أن الأستاذ الإمام حين مات لم يخلف لأهله شيئا ، على الرغم مما كان له من مرتب كبير فى الأوقاف . ولقد ثبت أن الرجل كان يفرّق جميع مرتباته من الأوقاف على المساكين والأسرات التى أخنى عليها الدهر . روى حافظ بك ابراهيم أنه رأى فى مأتم الإمام رجلا يبكى بكاء حارا فأراد حافظ بك أن يخفف عنه أحزانه بقوله إن مصابَه هو مصاب الجميع ، فأجابه ذلك الرجل : « لست أبكى على مصابى فيه فقط ، بل أبكى على مصاب هؤلاء المساكين الذين كنت أوزع عليهم كل شهر مرتباته من الأوقاف » !

وإلى هذا أشار حافظ ابراهيم فى رثاء الإمام حين قال :

بكينا على فرد وإنّ بكاءنا على أنفس لله منقطعات

تعهدها فضل الإمام وحاطها بإحسانه والدهر غير مُوات

وعلى الرغم من هذا كان للشيخ محمد عبده أعداء وحساد يكيدون له ، ويتقولون عليه بما هو منه برىء ، فرماه بعضهم — مع صديقيه قاسم أمين وسعد زغلول — بتهمة الرشوة . وجلس الأستاذ ذات ليلة فى منزله فتحدث مع حافظ إبراهيم عن هذه الفرية فقال :

« والله يا حافظ لو كنت أقبل الرشوة لسال هذا الفناء ذهبا » .

وقد روى الأستاذ الإمام لتلاميذه فى بعض دروسه قصة وقعت له مع طالب من طلاب الأزهر جاءه ذات يوم ورجاه أن يعينه على الامتحان ، وأراد أن يقدم له مبلغا من المال ظناً منه أن الأستاذ الإمام يقبل الرشوة . وعلق الأستاذ على تلك الواقعة ، والألم يحز فى نفسه ، فقال : « لقد خضت غمرات هذه الحياة وما بلغت العشرين . وها أنا قد نيّفت على الخمسين . ولا أعلم أنى طمعت فى يوم من أيام حياتى فى شىء مما زواه الله عنى ، كما أنى لا أعلم أنى نظرت إلى زخرف هذه الحياة نظر المتشهى المتمنّى الذى يشتد فى إثرها عدْوا ويقتل نفسه وراءها صبرا . ولقد مرّت بى فى كثير من أيامى الماضية ساعات كان لى فيها من الدّالة على أصحاب هذه البلاد وذوى الجاه والسلطان فيها ما يملأ بيتى فضة وذهبا . ولا أكتمكم أنى كنت أعالج من مجاهدة هذه الشهوات

ومدافعتها ما يجب أن يعالجه كل من نشأ نشأتى بين قوم شرهين طامعين . وكنت أحسب أن قد انتشر لى بين الناس من الذكر بالعفة والشرف وإباء النفس ما يثلج به صدرى وتطمئن إليه نفسى . فلما رأيت من حال هذا الشاب مارأيت علمت أنه لا يزال يوجد فى الناس من يظن بى ظن السوء ، ويتوهم أنى من سفلة الناس وجهلائهم الذين لا يطلبون الوظائف إلا ليرتشوا ولا يرتشون إلا ليظلموا . »

صدق الرجل الكريم النزيه . إنه لو شاء لكان ذا مال كثير ، ولكنه كان — كما قال مصطفى باشا عبد الرازق — « أكبر نفسا وأشد احتقارا للدنيا من أن يبذل جهده فى جمع المال ، فعاش عظيما فقيرا ، ومات فقيرا عظيما » .

ورجاؤنا اليوم أن تجد الشبيبة الناهضة ، فى سيرة الأستاذ الإمام ، هداية تنير لها الطريق فى هذا العالم المضطرب ، وذخراً تستعين به حين تُدعَى إلى المساهمة فى بناء العالم بناءً جديدا .

استدراك

وقع خطأ فى السطر العاشر من الصفحة الخامسة فى كلمة « أبى طالب » وصحتها : « الخطاب » .

دائرة المعارف الاسلامية

أوفى مرجع عن الحضارة الإســـــلامية

تصدرها

لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

احمد الشنتناوى . عبد الحميد يونس

ابراهيم زكى خورشيد . حافظ جلال

تم إصدار المجلدات الخمسة الأولى

وصدر العدد السادس من المجلد السادس

الاشتراك السنوى عن ستة أعداد خمسون قرشاً

ادارة اللجنة

١٤ شارع حسن الأكبر مصر . ت ٤١٣٧٥

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

أعلام الإسلام

١ — عمرو بن العاص للأستاذ عباس محمود العقاد صدر فى مارس سنة ١٩٤٤

٢ — منصور الأندلس « على أدهم « « ابريل «

٣ — بشار بن برد « ابرهيم عبد القادر المازنى « « مايو «

٤ — المعز لدين الله « ابراهيم جلال بك « « يونيه «

٥ — محمد عبده للدكتور عثمان أمين « « يوليه «

الكتاب السادس

أبو نواس للأستاذ عبد الرحمن صدقى

يصدر فى أغسطس سنة ١٩٤٤

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0038649306

893.7112 Ab324

DATE DUE

GAYLORD PRINTED IN U.S.A.

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU07816170